كسب سيّئة[١] وظاهر الكسب هو ما أخذوه على تحريفهم الكتاب من الحرام وهو الأليق بمساق الآية[٢] وكتابتهم مقدّمة ، نتيجتها كسب المال الحرام ، فلذلك كرّر الويل فى كلّ واحدٍ منهما لئلاّ يتوهّم أنّ الوعيد هو على المجموع فقط ، فكلّ واحدٍ من هذين متوعّد عليه بالهلاك[٣] .

أيأست الآيات الكريمات السّابقات المؤمنين من إيمان فريقين يهوديّين رئيسيّين وهما فريق الخاصّة من الأحبار ومن لفّ لفّهم وفريق العامّة من الأمّيّين الّذين لا يعلمون الكتاب إلاّ أمانىّ . ويتحوّل السّياق بعد ذلك للحديث عن كلٍّ من الفريقين على التّوالى ، والآية الكريمة الّتى نحن بصددها تتحدّث عن الفريق الأوّل ، وهو أهمّ الفريقين وعماد اليهود ، وهو فريق المحرّفين لكتاب الله تعالى بفرعيهم المحرّف المنافق والمحرّف المخرّف .

وعلى عادة القرآن الكريم الكتاب المتشابه المثانى الّذى يثنّى فيه الحديث عن الموضوع الواحد ويتتابع ، وعلى عادة القرآن الكريم فى كون الحديث المستأنف قديماً جديداً فى آنٍ واحد ، نتبيّن أن حديث الآية الكريمة عن الفريق الّذى يسمع كلام الله تعالى ثمّ يحرّفه من بعدما عقله وهو يعلم ما هو مقدمٌ عليه من إثم كبير وذنبٍ عظيم ، نتبيّن أنّ حديث الآية الكريمة عن هذا الفريق ذاته من زوايا تعمّق الزّوايا السّابقة ومن جوانب تقوّيها . فمع أنّ الحديث ابتداءً عن العذاب الشّديد الّذى يستحقّه أولئك المحرّفون المنافقون والمخرّفون ، فإنّ ثمّة إضافاتٍ إلى صفات المحرّفين السّيّئة السّابقة ، وكأن أسباب العذاب الّذى يستحقّه هذا الفريق تكتنفه من بين يديه ومن خلفه . إنّهم إذا كانوا من قبل قد حرّفوا كلام الله تعالى ، فإنّ آية العذاب الشّديد الّذى يستحقّه القوم تبيّن أنّ هذا الفريق من العلماء يمارس عمليّة التّحريف بيديه . ويلاحظ النّصّ على الأيدى وليس على الأنفس أو الذّوات مثلاً ، لأنّ عمليّة التحريف فى مجال الكتابة تتمّ بالأيدى فثمّة تنبيهٌ إلى كون العلماء هم الّذين قاموا بالتّحريف وإلى كونهم لم يوكلوا هذه المهمّة إلى غيرهم إنّما بلغت بهم الجراءة على الله تعالى أن ما رسوها هم أنفسهم بأيديهم . و لم يُرسلوا هذا التّحريف

---

(١) البحر المحيط ١/٢٧٠

(٢) البحر المحيط ١/٢٧٨

(٣) البحر المحيط ١/٢٧٧

و لم يتركوه ينتشر بذاته بين النّاس ، وهذا فى ذاته جرمٌ كبير ، إنّما تجاوزوا ذلك إلى القول للعامّة وأشباه العامّة حرصاً منهم على متاع الدّنيا الرّخيص الزّائل : إنّ هذا من عند الله تعالى . ومعروفٌ أنّ هذا من عند أنفسهم . ويلاحظ أنّنا بصدد تفسيرٍ لمظهرٍ من أخطر مظاهر تحريف اليهود للتّوراة وذلك بكتابة أشياء بأيديهم أملتها عليهم أهواؤهم ونسبوها إلى الله تعالى . وإنّ هذا النّوع الخطير من التّحريف يندرج تحته كلّ أنواع التّحريف الّتى تقلّ خطورة كأن يلووا أعناق النّصوص ليًّا ويوجّهوا المعانى الّتى يريدونها هم وليس الّتى يريدها النّصّ .

وإنّما قام القوم بهذه الجرائم حرصاً شنيعاً منهم على متاع الدّنيا الزّائل الرّخيص من مالٍ وجاه عن طريق التّزلّف للحكّام أو عن طريق تضليل الدّهماء . وقد نصّ على عمليّة الشّراء وهو بمعنى الاستبدال . وما هو الشّىء المشترى ؟ إنّه الثّمن الّذى تصفه الآية الكريمة بأنّه قليلٌ حقيقةً وإن بدا للعين كثيراً لأنّه كسبٌ خبيث ينطبق فى حقّه قوله عزّ من قائل[1] : ﴿ قل لا يستوى الخبيث والطّيّب ولو أعجبك كثرة الخبيث فاتّقوا الله يا أولى الألباب لعلّكم تُفْلحون ﴾ وما هو المقابل الّذى دفع ثمنًا لهذا الكسب الخبيث ؟ لعنة الله تعالى وغضبه على أولئك المحرّفين الّذين نقضوا العهد وخانوا الأمانة وقد قال تعالى[2] : ﴿ وإذ أخذ الله ميثاق الّذين أوتوا الكتاب لتبيّننّه للنّاس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتَرَوْا به ثمناً قليلاً فبئس ما يشترون ﴾ وقال تعالى فى حقّ علماء اليهود المكلّفين بحفظ التّوراة[3] : ﴿ إنّا أنزلنا التّوراة فيها هدًى ونور يحكم بها النّبيّون الّذين أسلموا للّذين هادوا والرّبّانيّون والأحبار بما استُحْفِظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء ، فلا تخشوا النّاس واخشونِ ولا تشتروا بآياتى ثمناً قليلاً ، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾ .

وبالإضافة إلى ابتداء الآية الكريمة بلفظة الويل « فويل » بمعنى شدّة العذاب

---

(١) سورة المائدة

(٢) سورة آل عمران ١٨٧

(٣) سورة المائدة ٤٤

ومشقّته فى حقّ المحرّفين للتّوراة بأيديهم من أجل متاع الدّنيا الرّخيص فإنّ لفظة ويل تأتى وراء ذلك مرّتين اثنتين ، فى حقّ الشّقّين من العمل أو النّوعين من المعانى اللّذين استحقّ بسببهما القوم الويل للمرّة الأولى . ولمّا كان الحديث الآن من باب التّفصيل بعد الإجمال أو التّفصيل الشّديد بعد التّفصيل ، فقد كان الويل من حظِّ كلٍّ من المعنيين أو العملين . إنّ كلاً من العملين يستحقّ القوم عليه العذاب الشّديد وحده فكيف بإقدامهم على هذين الجرمين معاً ! إنّ ثمة عملين يترتّب ثانيهما على أوّلهما . الكَتْب والكسب . الكتب أوّلاً بمعنى الدّسّ فى التّوراة ما كتب الأحبار بأيديهم كاذبين على الله تعالى وعلى عباد الله تعالى بأنّ المكتوب من عند الله تعالى وما هو من عند الله تعالى . ويلاحظ أن الكتب وسيلة لذا تقدّم الحديث عنها وتقدّم بين يديها الويل الّذى يستحقّه المحرّفون لكتاب الله تعالى . والكسب ثانياً بمعنى الحصول على متاع الدّنيا الرّخيص من مالٍ وجاه بكلّ الوسائل الدّنيئة وفى مقدّمتها تحريف كتاب الله تعالى . وعليه يكون الكسب غاية لذا تأخّر عنها الحديث الّذى تقدّم بين يديه هو الآخر الويل الّذى يستحقّه المعجبون بكثرة الخبيث . إنّ الجريمة الأولى لا يتصوّر أن يقدم عليها عاقل فكيف بالعالم المؤتمن الّذى لا يتورّع عن ارتكاب أبشع أنواع الخيانة تجاه الشّىء المؤتمن عليه ! وكيف بهذا العالم إذا تمادى فى سلسلة جرائمه وأثبت أنّ إقدامه على تحريف كتاب الله تعالى من أجل إرواء ظمأ نفسه الأمّارة بالسّوء الّتى لا ترتوى ، وإرضاء الشّيطان الرّجيم الّذى لا يأمر ابن آدم إلاّ بالسّوء والفحشاء ! إنّ هؤلاء يصحّ فى حقّهم قوله عزّ من قائل[1] : ﴿ أولئك الّذين اشتروا الضّلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة فما أصبرهم على النّار ﴾ .

---

(١) سورة البقرة ١٧٥

الآيـات رقـم (٨٠ ، ٨١ ، ٨٢)

قال تعالى : ﴿ وقالوا لن تمسَّنا النّار إلاّ أيّاماً معدودة . قل أتّخذتم عند الله عهداً فلن يخلف الله عهده أم تقولون على الله ما لا تعلمون . بلى من كسب سيئةً وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النّار هم فيها خالدون . والّذين آمنوا وعملوا الصّالحات أولئك أصحاب الجنّة هم فيها خالدون » .

وقالوا : يعنى اليهود[١] عن ابن عبّاس وقتادة أنّ اليهود قالت : إن الله أقسم أن يدخلهم النّار أربعين يوماً عدد عبادتهم العجل ، فأكذبهم الله[٢] .

والمسُّ : الإصابة . والمسّ الجمع بين الشّيئين على نهاية القرب . واللّمس مثله لكن مع الإحساس ، وقد يجىء المس مع الإحساس[٣] والمسّ يقال فيما يكون معه إدراك بحاسّة اللّمس[٤] وحقيقة المسّ واللّمس باليد[٥] بظاهر البشرة[٦] ونقل من الإحساس إلى المعانى مثل : أنّى مسّنى الشّيطان ، كالذى يتخبّطه الشّيطان من المسّ . ومنه سمّى الجنون مسّا[٧] .

المعدود اسم مفعول من عدّ بمعنى حسب . والعدد هو الحساب[٨] هى الأربعون يوماً مدّة عبادة آبائهم العجل[٩] وقيل : أراد بقوله معدودة أى قلائل يحصرها العدّ إلاّ أنّها معيّنة العدّ فى نفسها[١٠] .

قل : يا محمّد لمعشر اليهود[١١] .

---

(١) تفسير القرطبىّ ص ٤٠٥
(٢) تفسير القرطبىّ ص ٤٠٥
(٣) البحر المحيط ١/٢٧٠
(٤) المفردات للرّاغب الأصفهانىّ ٤٦٧
(٥) البحر المحيط ١/٢٧٠
(٦) البحر المحيط ١/٢٧٠
(٧) البحر المحيط ١/٢٧٠
(٨) البحر المحيط ١/٢٧٠
(٩) تفسير القرطبىّ ص ٤٠٥ والكشّاف ١/٢٢٤ والبحر المحيط ١/٢٧٨
(١٠) البحر المحيط ١/٢٧٨
(١١) تفسير الطّبرى ١/٣٠٤

أتّخذتم : حذفت منه همزة الوصل استغناءً بهمزة الاستفهام[١] وفى هذا الاستفهام إنكارٌ على ما قالوه[٢] .

عهداً : موثقاً من الله[٣] عن ابن عبّاس قال : لمّا قالت اليهود ما قالت قال الله جلّ ثناؤه لمحمّد : ﴿ قل أتّخذتم عند الله عهدا ﴾ . يقول : ادّخرتم عند الله عهدا . يقول : أقلتم لا إلـه إلاّ الله لم تشركوا و لم تكفروا به . فإن كنتم قلتموها فارجوا بها ، وإن كنتم لم تقولوها فلم تقولون على الله ما لا تعلمون . يقول : لو كنتم قلتم لا إلـه إلاّ الله و لم تشركوا به شيئاً ثمّ متّم على ذلك لكان لكم ذخراً و لم أخلف وعدى لكم أنّى أجازيكم بها[٤] ويقول القرطبىّ[٥] : « أى أسلفتم عملاً صالحاً فآمنتم وأطعتم فتستوجبون بذلك الخروج من النّار ! أو هل عرفتم ذلك بوحيه الّذى عهده إليكم : فلن يخلف الله عهده . قولان » .

والإخلاف : عدم الإيفاء بالشّىء الموعود[٦] فلن يخلف الله عهده : متعلّق بمحذوف تقديره : إن اتّخذتم عند الله عهداً فلن يخلف الله عهده[٧] .

وأم إمّا أن تكون معادلة بمعنى أىّ الأمرين كائن على سبيل التّقرير ، لأنّ العلم واقعٌ بكون أحدهما . ويجوز أن تكون منقطعة[٨] وعليه تكون أم بمعنى بل[٩] .

أم تقولون على الله ما لا تعلمون : توبيخ[١٠] عن أبى هريرة قال : لمّا فتحت خيبر أهديت لرسول الله ﷺ شاةٌ فيها سمّ ، فقال رسول الله ﷺ : « اجمعوا لى من كان من اليهود هـٰهنا . فقال لهم رسول الله ﷺ : من أبوكم ؟ قالوا : فلان : قال : كذبتم . بل أبوكم فلان . فقالوا : صدقت وبررت . ثمّ قال لهم : هل أنتم صادقىّ عن شىء إن سألتكم عنه ؟ قالوا نعم يا أبا القاسم ، وإن كذبناك عرفت كذبنا كما عرفته فى أبينا . فقال لهم

---

(١) الجلالين .
(٢) البحر المحيط ١/٢٧٨
(٣) تفسير الطّبرىّ ١/٣٠٤
(٤) تفسير الطّبرى ١/٣٠٤
(٥) تفسير القرطبىّ ص ٤٠٦
(٦) البحر المحيط ١/٢٧٩
(٧) الكشّاف ١/٢٢٤
(٨) الكشّاف ١/٢٢٤
(٩) انظر البحر المحيط ١/٢٧٨ وتفسير ابن كثير ١/١١٨
(١٠) تفسير القرطبى ص ٤٠٦

رسول الله ﷺ : من أهل النّار ؟ فقالوا : نكون فيها يسيراً ثمّ تخلفونا فيها . فقال لهم رسول الله ﷺ : اخسئوا والله لا نخلفكم فيها أبداً . ثمّ قال لهم رسول الله ﷺ : هل أنتم صادقيّ عن شيءٍ إن سألتكم عنه ؟ قالوا نعم يا أبا القاسم . قال : هل جعلتم فى هذه الشّاة سمّا ؟ فقالوا نعم . قال : فما حملكم على ذلك ؟ فقالوا : أردنا إن كنت كاذباً أن نستريح منك وإن كنت نبيًّا لم يضرّك » . ورواه الإمام أحمد والبخاريّ والنّسائيّ[١] .

بلى : حرف جواب لا يقع إلاّ بعد نفى فى اللّفظ أو المعنى[٢] وقوله تعالى بلى : أى ليس الأمر كما ذكرتم . قال سيبويه : ليس بلى ونعم اسمين وإنّما هما حرفان مثل بل وغيره . وهى ردّ لقولهم : لن تمسّنا النّار . وقال الكوفيّون : أصلها بل الّتى للإضراب عن الأوّل ، زيدت عليها الياء ليحسن الوقف عليها ، وضمّنت الياء معنى الإيجاب . فبل تدّل على ردّ الجحد . والياء تدلّ على الإيجاب لما بعد . قالوا : ولو قال قائل : ألم تأخذ ديناراً ؟ فقلت : نعم لكان المعنى لم آخذ ، لأنّك حقّقت النّفى وما بعده . فإذا قلت : بلى فصار المعنى قد أخذت . قال الفرّاء : إذا قال الرّجل لصاحبه : مالك علىّ شيء فقال الآخر : نعم . كان ذلك تصديقًا لأنّ لا شيء له عليه . ولو قال : بلى ، كان ردّاً لقوله ، وتقديره : بلى لى عليك . وفى التّنزيل : ألست بربّكم قالوا بلى . ولو قالوا نعم لكفروا »[٣] .

من : يحتمل أن تكون شرطيّة ويحتمل أن تكون موصولة . والمسوّغات لجواز دخول الفاء فى الخبر إذا كان المبتدأ موصولاً موجودة هنا ، ويحسّنه المجيء فى قسيمه بالّذين وهو موصول[٤] ومن لها لفظٌ ومعنى ، فحمل أوّلاً على اللّفظ فقال : من كسب سيّئةً وأحاطت به خطيئته . وحمل ثانياً على المعنى وهو قوله : فأولئك ، إلى آخره[٥] .

سيّئة : السّيّئة ، الشّرك . قال ابن جريج : قلت لعطاء : من كسب سيّئةً قال :

---

(١) تفسير ابن كثير ١/١١٨

(٢) البحر المحيط ١/٢٧٠ وجاء ص ٢٧٩ : « بلى حرف جواب يثبت به ما بعد النّفى » .

(٣) تفسير القرطبيّ ص ٤٠٦ وانظر تفسير الطّبرى ١/٣٠٤ فثمّة رأى الكوفيّين مفصّلا . وانظر مثلاً الصّاحبيّ فى فقه اللّغة ص ٢٠٧ ومعانى القرآن للفرّاء ١/٥٢ .

(٤) البحر المحيط ١/٢٧٩

(٥) البحر المحيط ١/٢٧٩

الشّرك وتلا : ﴿ ومن جاء بالسّيّئة فكبّت وجوههم فى النّار ﴾ . وكذا قال الحسن وقتادة[١] ويرى الطبرىّ أنّ المراد بالسّيّئة هنا خاصّ السّيّئات الّتى تستوجب الخلود فى النّار دون عامّ السّيّئات[٢] ويرى السّدّى أنّ المراد بالسّيّئة الذّنوب الّتى وعد عليها النّار[٣] وأصل الإحاطة بالشّىء الإحداق به بمنزلة الحائط الّذى تحاط به الدّار فتحدق به ، ومنه قول الله جلّ ثناؤه : ﴿ ناراً أحاط بهم سرادقها ﴾[٤] .

والخطيئة: الكبيرة[٥] لمّا قال تعالى : ﴿ من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته ﴾ ، دلّ على أنّ المعلّق على شريطين لا يتم بأقلهما . ومثله قوله تعالى : ﴿ إنّ الّذين قالوا ربّنا الله ثم استقاموا ﴾ . وقوله عليه السّلام لسفيان بن عبد الله الثّقفىّ وقد قال له : يا رسول الله : قل لى فى الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً بعدك ، « قال ، قل آمنت بالله ثمّ استقم » رواه مسلم[٦] .

أصحاب النّار : أهل النّار[٧] .

والمراد بالّذين آمنوا أمّة محمّد ﷺ ومؤمنو الأمم قبله . قاله ابن عبّاس وغيره . وهو ظاهر اللّفظ . وقال ابن زيد : هو خاصّ بالنّبىّ ﷺ[٨] ويقول ابن كثير[٩] : « أى آمنوا بالله ورسوله وعملوا الصّالحات من العمل الموافق للشّريعة فهم أهل الجنّة . وهذا المقام شبيه بقوله تعالى : ﴿ ليس بأمانيّكم ولا أمانىّ أهل الكتاب ، من يعمل سوءًا يجز به ولا يجد له من دون الله وليّاً ولا نصيراً . ومن يعمل من الصّالحات من ذكرٍ أو أنثى وهو مؤمنٌ فأولئك يدخلون الجنّة ولا يظلمون نقيراً ﴾ »

تحدث السّياق من ذى قبل عن فريقين رئيسيّين من اليهود . الخاصّة ويتزعّم هذا الفريق الأحبار الّذين يسمعون كلام الله ثمّ يحرّفونه من بعدما عقلوه وهم يعلمون والعامّة

---

(١) تفسير القرطبى ص ٤٠٧ وانظر تفسير الطبرى ١/٣٠٥ وفى البحر المحيط ١/٢٧٩ رأى هذا ابن عباس .

(٢) انظر تفسير الطّبرى ١/٣٠٥

(٣) تفسير الطّبرىّ ١/٣٠٥

(٤) تفسير الطّبرىّ ١/٣٠٦

(٥) تفسير القرطبىّ ص ٤٠٧

(٧) تفسير القرطبى ص ٤٠٧

(٨) تفسير الطّبرىّ ١/٣٠٧

(٨) البحر المحيط ١/٢٧٩ وانظر تفسير الطّبرىّ ١/٣٠٧

(٩) تفسير ابن كثير ١/١١٩

وهم فى مجموعهم أمّيّون لا يعلمون التّوراة إلا مجموعةً من الأمانى القلبيّة والرّغائب النّفسيّة والظّنون المرجّمة بالغيب . وعلى عادة القرآن الكريم فى تتابع معانيه تتابع موجات البحر المنتظمة ، تحدّثت الآية الكريمة السّابقة عن الفريق الأوّل ، وعلى عادة القرآن الكريم فى كون الحديث التّالى قديماً جداً فى آنٍ واحد ، فهو قديم باعتبار العودة إلى الموضوع السّابق ، كانت ثمّة نظرةٌ إلى الموضوع السّابق من زاويةٍ جديدةٍ معمّقةٍ فى ذات الوقت للنّظرة السّابقة . فإذا كان محور الحديث عن الفريق الأوّل يدور حول تحريفهم كلام الله تعالى ، فإنّ العودة إلى الحديث فى هذا الموضوع من الزّاوية الّتى تضيف جديداً إذ تبيّن ممارسة الأحبار عمليّة التّزوير بأيديهم ، فهم الّذين يحرّفون التّوراة بأيديهم وهم الّذين يضيفون إليها ما ليس منها ، وقياساً على ذلك هم يحذفون منها ما سوّلت لهم نفوسهم الأمّارة بالسّوء والشّياطين حذفه ، رغم كون هؤلاء العلماء هم المؤتمنين على حفظ التّوراة بنصّ الكتاب العزيز . وعلى غرار عودة الآية الكريمة السّابقة إلى الحديث عن الفريق الأوّل ، عادت الآية الكريمة التالية ، بل الآيات الكريمات التّاليات إلى الحديث عن الفريق الثّانى الأمّىّ الّذى لا يعلم الكتاب إلاّ أمانىّ. وبهذا يتبيّن مظهرٌ من مظاهرالإعجاز القرآن الكريم فى تفسير بعض القرآن الكريم بعضاً . ومن أهمّ ما يلاحظ من فرقٍ بين الفريقين هو أن الخطأ الشّنيع الّذى ارتكبه الفريق الأوّل يجمع بين القول والعمل . بينما يكاد يقتصر خطأ الفريق الثّانى على القول . وإذا كان ثمّة من عمل فإنّه يأتى تبعاً . فماذا قال الأمّيّون هذه المرّة ؟ . قال تعالى : ﴿ وقالوا لن تمسّنا النّار إلاّ أيّاماً معدودة ﴾ .

ويفهم من هذا القول على لسانهم أنّهم يؤمنون بالبعث والنّشور والحساب والثّواب والعقاب والجنّة والنّار . وهم يتحدّثون فى لهجة المتأكّد ممّا يقول عن المدّة الّتى سيقضونها فى النّار بأنها أيّامٌ معدودة . ويلاحظ أنّهم يعترفون ضمناً بدخولهم النّار وباستحقاقهم دخول النّار . ولكنّهم يحدّدون فى لهجة الواثق ممّا يقول الفترة الّتى سيقضونها فى نار جهنّم . إنّها ليست أعوامًا مديدة ، وليست أشهراً عديدة ، ولكنّها أيّامٌ معدودة . والعادة جرت بأنّ المعدود حينما يسهل عدّه

ويمكن حصره أن يعدّ عدّاً ، وقد حصر بعضهم العدد فى أربعين يوماً هى مدّة عبادة آبائهم العجل .

وما كاد هؤلاء الأمّيّون ليرسلوا الكلام الخطير هذا على عواهنه لولا أن أحبارهم الّذين يعتقدون صدقهم واستقامتهم قد سرّبوا إليهم هذ المعلومات وأشربوها قلوبهم وحدّروها إلى نفوسهم . لذلك هم يتحدّثون فى لهجة الواثق ممّا يقول بأنّ مدّة مكثهم فى نار جهنّم لن تطول . وحينما فاتحهم المصطفى ﷺ فى هذا الأمر بيّنوا له عليه الصّلاة والسّلام بصريح اللّفظ بأنّهم سيخرجون من النّار وأنّ المسلمين سيخلفونهم فيها فأكذبهم المصطفى ﷺ على الفور قائلاً ليهود خيبر الّذين يمثّلون اليهود الآخرين : « اخسئوا والله لا نخلفكم فيها أبدا » .

ويفهم من مجيء المسّ على ألسنة بنى إسرائيل ، أنّ النّار تمسّهم مسًّا رفيقا . وعليه يكون حديثهم عن دخولهم النّار يوم القيامة قد راعى طبيعة النّار الّتى تلامس بشرتهم والّتى تمسّ جلودهم مسًّا رفيقا ، إضافةً إلى كونه قد راعى طول الفترة . إنّها فترةٌ قصيرةٌ على كلّ حال حسب اعتقادهم .

وتنكر الآية الكريمة عليهم أشدّ الإنكار خوضهم فى أمرٍ من أمور الغيب ، فتسألهم فى هيئة الاستفهام الإنكارى : أاتّخذتم عند الله عهداً بأنّ النّار لن تمسّكم إلاّ إيّاماً معدودة ؟ هل شهدتم أنّه لا إلـه إلاّ الله وآمنتم وعملتم الصّالحات كى تكون لكم عند الله تعالى المنزلة العالية كفاء الحسنات الّتى عملتموها كى يكافئكم عليها يوم القيامة ولا يخلّدكم فى النار ؟ أم هل عهد الله تعالى إليكم عهداً بأنّ النّار سوف تمسّكم يوم القيامة مسّاً رفيقاً ولفترةٍ محدودة ومدّة معدودة ؟ إن كان الله تعالى قد عهد إليكم ألاّ تمسّكم النّار إلاّ أيّاماً معدوذة وكنتم قد اتّخذتم بذلك عند الله عهداً فلن يخلف الله تعالى عهده . هل اتّخذتم عند الله عهداً أم أنّكم تقولون على الله ما لا تعلمون ؟

وإذا فهمنا أنّ القائلين هذه المقولة لا يعلمون أنّهم يقولون على الله تعالى ما لا يعلمون صحّ أن تكون أم معادلة بمعنى : أىّ الأمرين كائنٌ على سبيل التّقرير لأنّ العلم واقع بكون

أحدهما[١] وإذا فهمنا أنَّ القائلين يعلمون أنّهم يقولون على الله تعالى ما لا يعلمون صحّ أن تكون أم بمعنى بل والمعنى : بل تقولون على الله ما لا تعلمون . وفى كلتا الحالتين لا يكون القوم قد اتّخذوا عند الله تعالى عهداً وأنّهم إنّما يقولون ما لا يعلمون ، عن جهلٍ وكونهم لا يعلمون أنّهم يقولون ما لا يعلمون ، أو عن علم وكونهم يعلمون أنّهم يقولون ما لا يعلمون .

« وقال أبو زكريا الفرّاء : العرب تجعل بل مكان أم . وأم مكان بل ، إذا كان فى أوّل الكلمة استفهام . قال الشّاعر :

فوالله ما أدرى أسلمى تغوّلت أمِ النّوم ، أم كلٌّ إلىّ حبيب ؟[٢]

ولمّا كانت بلى إثباتاً لمنفيٍّ قبلها[٣] ووضعت لكلّ إقرارٍ فى أوّله جحد[٤] وكانت الآية الكريمة السّابقة قد جاء فيها على لسان اليهود القول : ﴿ وقالوا لن تمسّنا النّار إلاّ أيّاماً معدودة ﴾ وكان المراد إثبات المنفيّ جاءت « بلى » فى صدر الآية الكريمة التّالية : ﴿ بلى من كسب سيّئة .... ﴾ الآية . وكأنّ المعنى بلى تمسّكم النّار . والملاحظ أنّ الآية الكريمة وإن كان هذا المعنى مفهوماً منها فإنّها لا تصرّح به ، ولكنّها كعادة القرآن الكريم فى إضافة الجديد من المعانى إلى الموضوع السّابق تضع قاعدةً كلّيّة ، من انطبقت عليه اندرج تحتها وهذه هى القاعدة الكلّيّة : ﴿ بلى من كسب سيّئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النّار هم فيها خالدون ﴾ فالقاعدة الكلّيّة أن يكسب المرء سيّئة وأن يقع فى شرك وأن يحصل على كفر ثمّ لا يتوب إلى الله توبةً نصوحاً من ارتكابه الذّنب الّذى لا يغفره الله سبحانه وتعالى إلى أن يتوفى على شركه ، وقد عبّر عن هذه الوفاة على الشّرك بإحاطة هذه الخطيئة الكبيرة بصاحبها وإحداقها به وعدم خلوصه منها وتخطّيه لها حتّى اخترمته المنيّة . إنّ من صحّت فى حقّه هذه القاعدة الكلّيّة فهو من أصحاب النّار الخالدين

---

(١) البحر المحيط ٢٧٨/١ والمراد بالكون هنا الوجود والتّحقّق . وانظر هنا الصّاحبىّ فى فقه اللّغة ص ١٦٦ ومعانى القرآن للفرّاء ٧١/١

(٢) الصّاحبىّ فى فقه اللّغة ص ١٦٨ وانظر معانى القرآن للفرّاء ٧٢/١ تغوّلت : تلوّنت .

(٣) الصّاحبىّ فى فقه اللّغة ص ٢٠٧ (٤) معانى القرآن للفرّاء ٥٢/١

فيها . ويلاحظ أنّ الآية الكريمة لا تقف عند مجرّد مسّ النّار الّذى نفاه اليهود عن أنفسهم ، إنّما تتجاوزه إلى الإحراق بالنّار بل إلى الخلود فى النّار . وبذلك يدخل مسّ النّار من يستحقّ مسّها تحت قاعدة الإحراق بالنار والخلود فيها . ويلاحظ كذلك أنّ من لا يتحقّق فيه هذان الشّرطان من الإشراك مع الله تعالى غيره وعدم التّوبة ، لا يصحّ فى حقّه بفضل الله تعالى وبعدله كما يفهم من الآية الكريمة ، لا يصحّ فى حقّه الخلود فى النّار ، ومن الجائز ألاّ يصحّ فى حقّه مجرّد الدّخول فى النّار ومسّها له . وكأنّ الآية الكريمة فى تجاوزها إلى وضع القاعدة الكلّيّة قد استثنت كلّ من لا يستحقّون مجرّد مسّ النّار ويدخل فى هذا الاستثناء كلّ من آمن بالله تعالى وعمل صالحاً وفق التعاليم الصّحيحة الّتى انتهت إليه فى هيئة الكتاب الموحى به إلى رسول الله تعالى وفى هيئة ما أتى به الرّسول من ربّه من وحى . ويلاحظ أخيراً أنّ الآية الكريمة يصحّ أن تشمل كلّ من أشرك مع الله تعالى غيره وأحاطت به خطيئته فلم يتب إلى الله تعالى توبةً نصوحاً . فليس الأمر مقصوراً على اليهود الّذين زعموا أنّ النّار لن تمسّهم إلاّ أياماً معدودة . وعلى غرار هذه الآية الكريمة الّتى تضع قاعدةً كلّيّةً شاملةً يخلد وفقها فى النّار كلّ من تحقّقت فيه ، تجىء الآية الكريمة التّالية ، الّتى تضع هى الأخرى قاعدةً كلّيّة شاملة مقابلة ، يخلد وفقها فى الجنّة كلّ من تحقّقت فيه . قال تعالى : ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصّالحات أولئك أصحاب الجنّة هم فيها خالدون ﴾ فأهل الجنّة الخالدون فيها هم أولئك المؤمنون والعاملون للصّالحات . وبهذا يتبيّن أنّ ثمّة شرطين مرتبطين بالخلود فى الجنّة على غرار الشّرطين المرتبطين بالخلود فى النّار .

وحينما نتبيّن أنّ الإسلام ناسخٌ للأديان قبله وأنّ الدّين عند الله الإسلام وأنّ واجب الإنسانية جمعاء أن تصدّق الرّسول النّبىّ الأمّىّ خاتم الأنبياء والمرسلين محمّد بن عبد الله ﷺ وتؤمن به ، يكون معنى ذلك أنّ هذه القاعدة صحيحة فى حقّ أتباع محمّد بن عبد الله ﷺ ، وفى حقّ أتباع رسل الله السّابقين الّذين نسخ دين الإسلام الّذى جاء به محمّد ابن عبد الله ﷺ ما سبق أن جاءوا به من عند ربّهم جلّ وعلا .

ومن الواضح أنّه يقترن بهذا الفهم مسئوليّةٌ عظمى على المسلمين ، بأن يبلّغوا رسالة

الإسلام إلى كلّ عباد الله تعالى كى يحقّقوا معنى الشّهادة على الأمم لأنّهم أدْلوا بشهادة الحقّ وبلّغوا الرّسالة وأدّوا الأمانة ولزمت الآخرين الحجّة ، أمّا فى حالة تقصير المسلمين عن تبليغ رسالة هذا الدّين فإنّ شهادة الحقّ ستكون ضدّهم . وكما يكون إبلاغ دعوة الحقّ بالكلمة الطّيبة فى هيئة الحكمة والموعظة الحسنة ، يكون كذلك بالأسوة الحسنة ، وبالسّلوك المستقيم ، وبتطبيق تعاليم الإسلام العظيمة وخلقه العظيم .

الآيــة رقــم (٨٣)

قال تعالى : ﴿ وإذ أخذنا ميثاق بنى إسرائيل لا تعبدون إلاّ الله وبالوالدين إحساناً وذى القُرْبى واليتامى والمساكين وقولوا للنّاس حسناً وأقيموا الصّلاة وآتوا الزّكاة ثمّ تولّيتم إلا قليلاً منكم وأنتم معرضون ﴾ .

وإذ : معطوف على الظّروف السّابقة قبل هذا[١] .

والميثاق مفعال من التّوثّق باليمين ونحوها من الأمور الّتى تؤكّد القول . فمعنى الكلام إذاً . واذكروا أيضاً يا معشر بنى إسرائيل إذ أخذنا ميثاقكم لا تعبدون إلا الله[٢] وممّا قيل فى الميثاق إنّه أخذ عليهم وهم عقلاء فى حياتهم على لسان موسى عليه السّلام وغيره من أنبيائهم قاله ابن عطيّة . وقيل هو ميثاقٌ أخذ عليهم فى التّوراة[٣] .

قوله تعالى : ﴿ لا تعبدون ﴾ . قال سيبويه : لا تعبدون متعلّق بقسم . والمعنى وإذ استحلفناكم والله لا تعبدون . وأجازه المبرّد والكسائّى والفرّاء[٤] « أى قلنا لهم والله لا تعبدون . وقالوا والله لا يعبدون »[٥] وقال الفراء والزّجاجّ وجماعة : المعنى أخذنا ميثاقهم بألاّ يعبدوا إلا الله ، وبأن يحسنوا للوالدين وبألاّ يسفكوا الدّماء ، ثمّ حذفت

---

(١) البحر المحيط ١/٢٨٢
(٢) تفسير الطّبرى ١/٣٠٧
(٣) البحر المحيط ١/٢٨٢
(٤) تفسير القرطبى ص ٤٠٧
(٥) تفسير الطبرى ١/٣٠٨

أن والباء ، فارتفع الفعل لزوالهما كقوله تعالى[١] : ﴿ قل أفغير الله تأمرونّى أعبد أيها الجاهلون ﴾ . فرفع أعبد إذ لم تدخل فيها أن ، بالألف الدّالّة على معنى الاستقبال وكما قال الشّاعر :

ألا أيّهذا الزّاجرى أحضر الوغى وأن أشهد اللّذّات هل أنت مخلدى

فرفع أحضر ، وإن كان يصلح دخول أن فيها إذ حذفت ، بالألف الّتى تأتى بمعنى الاستقبال . وإنّما صلح حذف أن من قوله : وإذ أخذنا ميثاق بنى إسرائيل لا تعبدون ، لدلالة ما ظهر من الكلام عليها ، فاكتفى بدلالة الظّاهر عليها منها[٢] ولا تعبدون إخبارٌ فى معنى النّهى كما تقول : تذهب إلى فلان تقول له كذا تريد الأمر وهو أبلغ من صريح الأمر والنّهى ؛ لأنّه كأنّه سورع إلى الامتثال والانتهاء فهو يخبر عنه[٣] وعبادة الله إثبات توحيده ، وتصديق رسله ، والعمل بما أنزل فى كتبه[٤] .

إلاّ الله : استثناء مفرّغ لأنّ لا تعبدون لم يأخذ مفعوله . وفيه التفات إذ خرج من ضمير المتكلّم إلى الاسم الغائب . ألا ترى أنّه لو جرى على نسقٍ واحد لكان نظم الكلام : لا تعبدون إلاّ إيّانا ، لكن فى العدول إلى الاسم الظّاهر من الفخامة والدّلالة على سائر الصّفات والتّفرّد بالتّسمية به ما ليس فى المضمر ، ولأنّ ما جاء بعده من الأسماء إنّما هى أسماء ظاهرة فناسب مجاورة الظّاهر[٥] .

الوالدان : الأب والأمّ . وكلٌّ منهما يطلق عليه والد ..... ويقال للأمّ والد ووالدة . وقيل : الوالد للأب وحده وثنيّا تغليباً للمذكّر[٦] .

وبالوالدين إحسانا : أى وأمرناهم بالوالدين إحسانا[٧] أو أحسنوا بالوالدين إحساناً[٨] والباء ترادف إلى فى هذا الفعل . تقول : أحسنت به وإليه بمعنًى واحد[٩] .

---

(١) تفسير القرطبى ص ٤٠٨
(٢) تفسير الطّبرىّ ١/٣٠٨
(٣) الكشّاف ١/٢٢٤
(٤) تفسير القرطبىّ ص ٤٠٧
(٥) البحر المحيط ١/٢٨٣
(٦) البحر المحيط ١/٢٨٠
(٧) تفسير القرطبى ص ٤٠٨
(٨) انظر الجلالين والكشّاف ١/٢٢٤ والبحر المحيط ١/٢٨٣
(٩) البحر المحيط ١/٢٨٤ .

والقُربى بمعنى القرابة وهو مصدر كالرُّجعى والعُقبى[١] والألف فيه للتأنيث[٢] من قولك : قربت منّى رحم فلانٍ قرابةً وقربى وقرباً بمعنًى واحد[٣] .

واليتامى جمع يتيم مثل أسارى وأسير وندامى ونديم .ويدخل فى اليتامى الذّكور منهم والإناث[٤] واليُتم فى بنى آدم بفقد الأب ، وفى البهائم بفقد الأمّ . وأصله الانفراد يقال : صبىّ يتيم أى منفرد من أبيه وبيت يتيم ، أى ليس قبله ولا بعده شىءٌ من الشّعر ، ودرّة يتيمة ليس لها نظير[٥] .

والمساكين جمع مسكين وهو مشتقّ من السّكون[٦] والمساكين هم الّذين أسكنتهم الحاجة وأذلّتهم[٧] والمسكين مفعيل من المسكنة .والمسكنة هى ذلّ الحاجة والفاقة[٨]

وحُسْناً نصب على المصدر على المعنى لأنّ المعنى ليحسن قولكم .وقيل : التّقدير وقولوا للنّاس قولاً ذا حُسْن ، فهو مصدر لا على المعنى .وقرأ حمزة والكسائىّ حَسَناً بفتح الحاء والسّين .قال الأخفش : هما بمعنًى واحد مثل البُخْل والبَخَل والرُّشد والرَّشد[٩] واختلف المفسّرون فى معنى قوله : وقولوا للنّاس حسنا .فقال ابن عبّاس : قولوا لهم لا إلـه إلا الله ومروهم بها .وقال ابن جريج : قولوا لهم حسناً فى الإعلام بما فى كتابكم من صفة رسول الله ﷺ .وقال أبو العالية : قولوا لهم القول الطّيّب وجاوبوهم بأحسن ما تحبّون أن تجاوبوا به . وقال سفيان الثّورىّ: مروهم بالمعروف وانهوهم عن المنكر .وقال ابن عبّاس أيضاً : صدقاً فى أمر محمّد ﷺ[١٠] وقد أحسن أبو حيّان القول فى هذا الشّأن يقول[١١] : « فأمّا قراءة الجمهور حُسْناً فظاهره أنّه مصدر وأنّه كان فى الأصل قولاً حسناً ، إمّا على حذف مضاف أى ذا حسن ، وإمّا على الوصف بالمصدر

---

(١) تفسير القرطبى ص ٤٠٨
(٢) البحر المحيط ١/٢٨١
(٣) تفسير الطبرىّ ١/٣٠٩
(٤) انظر تفسير الطّبرىّ ١/٣٠٩
(٥) انظر تفسير القرطبىّ ص ٤٠٨ والبحر المحيط ١/٢٨١
(٦) البحر المحيط ١/٢٨١
(٧) تفسير القرطبىّ ص ٤١٠
(٨) تفسير الطّبرى ١/٣٠٩
(٩) تفسير القرطبىّ ص ٤١٠ وانظر البحر المحيط ١/٢٨٥ وتفسير الطّبرىّ ١/٣١٠
(١٠) البحر المحيط ١/٢٨٦
(١١) البحر المحيط ١/٢٨٥

لإفراط حسنه . وقيل يكون أيضاً صفة ،لا أنّ أصله مصدر بل يكون كالحلو والمرّ فيكون الحسْن والحسَن لغتين كالحُزْن والحَزَن والعُرْب والعَرَب .وقيل انتصب على المصدر من المعنى لأنّ المعنى : وليحسن قولكم حسناً » ويقول الطّبرى[١] : « وأمّا الحسن فإنّ القرّاء اختلفت فى قراءته فقرأته عامّة قرّاء الكوفة غير عاصم : وقولوا للنّاس حَسَنا بفتح الحاء والسّين . وقرأته عامّة قرّاء المدينة حسنا بضمّ الحاء وتسكين السّين » .

« وأقيموا الصلاة : أدّوها بحقوقها الواجبة عليكم فيها »[٢] .

وآتوا الزّكاة . قال ابن عطيّة : وزكاتهم هى الّتى كانوا يضعونها فتنزل النّار على ما يتقبّل ولا تنزل على ما لم يتقبّل و لم تكن كزكاة أمّة محمّد ﷺ[٣] « عن ابن عبّاس : وآتوا الزّكاة قال : إيتاء الزّكاة ما كان الله فرض عليهم فى أموالهم من الزّكاة وهى سنّة كانت لهم غير سنّة محمّد ﷺ . كانت زكاة أموالهم قرباناً تهبط إليه نارٌ فتحملها فكان ذلك تقبّله . ومن لم تفعل النّار به كان غير متقبّل وكان الّذى قُرِّب من مكسبٍ لا يحلّ من ظلم أو غشم أو أخذ بغير ما أمر الله به وبيّنه له[٤] » .

« والإعراض والتّولّى بمعنًى واحد مخالفٌ بينهما فى اللّفظ .وقيل : التّولّى بالجسم والإعراض بالقلب »[٥] .

إلا قليلاً : المعنىّ بالقليل فى عدد الأشخاص .فقيل هذا القليل هو عبد الله بن سلام وأصحابه . وقيل : من آمن قديماً من أسلافهم وحديثاً كعبد الله بن سلام وغيره[٦] .

وأنتم معرضون : جملةٌ حالية قالوا مؤكّدة .وهذا قول من جعل التّولّى هو الإعراض بعينه ومن خالف بينهما تكون الحال مبيّنة .وكذلك تكون مبيّنة إذا اختلف متعلّق التولّى والإعراض كما قال بعضهم : إنّ معناه ثمّ تولّيتم عن عهد ميثاقكم وأنتم معرضون عن هذا النبى ﷺ . وجاءت الجملة الحاليّة اسميّة مصدرة بأنتم لأنّها آكد وكان الخبر اسمًا أدلّ على

---

(١) تفسير الطّبرىّ ١/٣١٠
(٣) تفسير القرطبىّ ص ٤١١
(٥) تفسير القرطبى ص ٤١٢
(٦) البحر لمحيط ١/٢٨٧ وانظر تفسير القرطبى ص ٤١٢
(٣) تفسير الطّبرى ١/٣١١
(٤) تفسير الطّبرى ١/٣١١

الثّبوت فكأنّه قيل : وأنتم عادتكم الإعراض عن الحقّ والتّولية عنه[١] .

تبدأ الآية الكريمة بالقول « وإذ » وذلك على غرار كلّ آيات هذا القسم من السّورة الكريمة فى مستهلّ كلّ معنًى جديد ، وقد جاء هذا القول للمرّة الأخيرة فى قوله تعالى : ﴿ وإذ قتلتم نفساً فادّارأتم فيها والله مخرجٌ ما كنتم تكتمون ﴾ والمعنى دائماً واذكروا إذ ، والمعنى هنا . واذكروا إذ أخذنا ميثاق بنى إسرائيل الآية .

وحينما نتدبّر كلاً من القول « أخذنا » والقول « ميثاق » نتبيّن أنّهما قولان متكافئان فى القوّة المعنويّة . فلو أنّا نظرنا إلى جملة أخذ من الوجهة اللّغويّة واستعمالاتها لتبيّنّا أنّها تفيد التّناول وهو خلاف العطاء[٢] وفى هذا التّناول شيءٌ كبيرٌ من القوّة والشّدّة وقد قال تعالى[٣] ﴿ وكذلك أخذ ربّك إذا أخذ القرى وهى ظالمة ، إنّ أخذه أليمٌ شديد ﴾ ولمّا كان الغالب على الأخذ فى الاستعمال اللّغوىّ أن يكون باليد ، كان فى ارتباط الأخذ باليد وهى أقوى الجوارح فى هذا الباب ، تعميقٌ للقوّة وللشّدّة المرتبطتين بعمليّة الأخذ . وإنّ كلّ هذه الملابسات اللّغويّة قوّةٌ لشدّة التّناول الّتى نفهمها فى الآية الكريمة « أخذنا » ومعروفٌ أنّ نون العظمة عائدٌ إلى الذّات العليّة ، وهو مقوٍ لعمليّة الأخذ .

فإذا تحوّلنا إلى لفظة الميثاق من القول « ميثاق بنى إسرائيل » تبيّنّا أنّ الميثاق هو العهد المؤكّد بيمين أو غيره . وهذا معناه أنّ بنى إسرائيل إنّما أخذ الله تعالى عليهم عهداً مؤكّداً والتّقدير كما ذهب إلى ذلك سيبويه : وإذ استحلفناكم والله لا تعبدون إلا الله[٤] فثمّة تكافؤٌ بين العهد المؤكّد وبين التّناول الشّديد .

وتبيّن الآية الكريمة مفردات ذلك العهد المؤكّد الّذى أخذه بنو إسرائيل على أنفسهم على نحو ما جاء فى التّوراة الّتى أوحى الله تعالى بها إلى موسى عليه السّلام . وأولى مفردات هذا العهد المؤكّد متعلّقٌ بالغاية الّتى من أجلها خلق الله تعالى الخلق وهى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له .

---

(١) البحر المحيط ١/٢٨٨

(٢) انظر معجم مقاييس اللّغة « أخذ » ١/٦٨

(٣) سورة هود ١٠٢

(٤) تفسير القرطبىّ ص ٤٠٧

وبشأن أولى موادّ العهد وأهمّها لا يجيء القول فى معرض النّهى ، ألاّ تعبدوا إلاّ الله ، إنّما يجيء فى هذه الصّيغة « لا تعبدون إلا الله » وهى وإن كانت صيغة الزّمن المضارع إلاّ أنّ معناها الأمر . وكأن صيغة الزّمن المضارع هنا « لا تعبدون إلا الله » تتمشّى مع المرحلة الّتى تتلو إيتاء بنى إسرائيل العهد المؤكّد على نفسهم عن رضاً وارتياح وأخذ ذلك العهد منهم . فإذا كان الأمر بقبول العهد مثلاً يتمشّى معه مثل هذا التّعبير « ألاّ تعبدو إلا الله » فإنّ القوم قد قبلوا التّكليف وآتوا العهد المؤكّد الّذى أخذوه على أنفسهم وها هم أولاء يترجمون أولى موادّه إلى عمل وها هم أولاء لا يعبدون إلاّ الله تعالى وحده لا شريك له . وكأنّ التّعبير فى الآية الكريمة يتمشّى مع ممارسة القوم الفعليّة لهذه الشّعيرة الدّينيّة العظيمة ، بل وكأنّ التّعبير يشمل فى ذات الوقت المعاصرين للمصطفى ﷺ فهو ينهاهم عن عبادة غير الله تعالى ، وبهذا يبدو هذا القول : « لا تعبدون إلا الله » وكأنّه يقوم بدورٍ آخر مهمّ ، ألا وهو التّوطئة للتعبير فى الآية الكريمة الّذى يخاطب المعاصرين للمصطفى ﷺ ﴿ ثمّ تولّيتم إلا قليلاً منكم وأنتم معرضون ﴾ .

وحينما نتبيّن أنّ فى هذا التّعبير « لا تعبدون إلا الله » نوعا من الالتفات حيث قد جاء لفظ الجلالة « الله » بعد نون العظمة فى القول : « وإذ أخذنا » إذ لم يجيء التّعبير مستعملاً ضمير جماعة المتكلمين لا تعبدون إلاّ إيّانا ، نستطيع أن نذهب إلى القول إنّ مجيء صيغة « تعبدون » فى الآية الكريمة ذات الدّلالات المتعدّدة حيث تجمع بين الماضى والمضارع فى قَرَن ، إنّ مجيء صيغة « تعبدون » الّتى تمّ فيها العدول إلى المضارع عن النّهى ، قد وطّأت لأسلوب الالتفات الّذى تمّ فيه العدول عن استعمال ضمير جماعة المتكلّمين « نا » إلى اسم الجلالة الظّاهر « الله » .

ولمّا كانت أولى موادّ الميثاق قد بيّنت حق الله تعالى على العباد ، وهذا الحقّ هو أهمّ موادّ الميثاق وبنوده ، وكان ثمّة تحوّل إلى حقوق العباد ، فقد نبّه هذا التّحوّل إلى أولى العباد برعاية الحقوق ألا وهما الوالدان . إنّ النّشأة الأولى إذا كانت بإرادة الله تعالى الّذى له وحده جلّ وعلا الخلق والأمر ، فإنّ النّشء التّالى إنّما كان بإرادة الله تعالى بواسطة الوالدين . وما أكثر الآيات الكريمة الّتى قرنت بين عبادة الله تعالى وبين برّ الوالدين .

ولا يقتصر الإحسان إلى الوالدين عليهما إن كانا مؤمنين ، بل يتجاوز ذلك إلى معاشرتهما فى هذه الحياة الدّنيا بالمعروف . وبتأمل كلٍّ من القرآن الكريم وسنّة المصطفى ﷺ بشأن برّ الوالدين والإحسان إليهما يتبيّن أنّ حظّ الوالدة هو الموفور . وإليك هذه الآيات الكريمة . جاء فى سورة الإسراء[1] قوله تعالى . ﴿ وقضى ربّك ألاّ تعبدوا إلاّ إيّاه وبالوالدين إحسانا . إما يبلغنّ عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أفٍّ ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريما . واخفض لهما جناح الذّلّ من الرّحمة وقل ربّ ارحمهما كما ربّيانى صغيرا ﴾ وجاء فى سورة لقمان[2] قوله تعالى : ﴿ ووصّينا الإنسان بوالديه حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وهْناً على وَهْنٍ وفِصالُه فى عامين أن اشكر لى ولوالديك إلَىَّ المصير . وإن جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علمٌ فلا تطعهما وصاحبهما فى الدّنيا معروفاً واتّبع سبيل من أناب إلىّ ثمّ إلىّ مرجعكم فأنبّئكم بما كنتم تعملون ﴾ وجاء فى سورة العنكبوت[3] قوله تعالى . ﴿ ووصّينا الإنسان بوالديه حُسْنا . وإن جاهداك لتشرك بى ما ليس لك به علمٌ فلا تطعهما إلىّ مرجعكم فانبّئكم بما كنتم تعملون ﴾ وجاء فى سورة الأحقاف[4] قوله تعالى : ﴿ ووصّينا الإنسان بوالديه إحسانا ، حملته أمُّه كُرْهًا ووضعته كُرْهاً وحمله وفِصاله ثلاثون شهراً ، حتّى إذا بلغ أشدّه وبلغ أربعين سنةً قال ربّ أوزعنى أن أشكر نعمتك الّتى أنعمت علىّ وعلى والدىّ وأن أعمل صالحاً ترضاه وأصلح لى فى ذرّيّتى إنّى تُبْت إليك وإنّى من المسلمين ﴾ .

وفى الصّحيحين عن ابن مسعود قلت : يا رسول الله : أىّ العمل أفضل ؟ « قال : الصّلاة على وقتها . قلت : ثمّ أىّ؟ قال : برّ الوالدين . قلت : ثمّ أىّ؟ قال : الجهاد فى سبيل الله . ولهذا جاء فى الحديث الصّحيح أنّ رجلاً قال يا رسول الله من أبرّ ؟ قال : أمّك . قال : ثمّ من ؟ قال : أمّك . قال ثمّ من ؟ قال أباك . ثمّ أدناك ثمّ أدناك[5] والإحسان

---

(١) الآية ٢٣ ، ٢٤ (٢) الآية ١٤ ، ١٥

(٣) الآية ٨ (٤) الآية ١٥

(٥) تفسير ابن كثير ١/١١٩ وانظر صحيح البخارى ٢/٨

إلى الوالدين معاشرتهما بالمعروف والتّواضع لهما وامتثال أمرهما والدّعاء بالمغفرة لهما بعد مماتهما وصلة أهل ودّهما[١] فإن قال قائل : وما ذلك الإحسان الّذى أخذ عليهم بالوالدين الميثاق ؟ قيل نظير ما فرض الله على أمّتنا لهما من فعل المعروف لهما والقول الجميل و خفض جناح الذّلّ رحمة بهما والتّحنّن عليهما والرّأفة بهما والدّعاء بالخير لهما وما أشبه ذلك من الأفعال الّتى ندب الله عباده أن يفعلوا بهما[٢] .

وبعد أن تحدّثت الآية الكريمة عن أَوْلى عباد الله تعالى بالبّر ، ألا وهما الوالدان ، تحوّلت إلى الّذين يلون الوالدين درجة ، ثمّ الّذين يلونهم وهكذا . والحقيقة أنّنا بصدد ترتيبٍ معجزٍ لهذه الفئات ، بحيث إنّه يستحيل أن يكون ترتيب أىّ فئةٍ فى غير هذه الصّورة . فثمّة حكمة جليلة وراء الموضع الّذى شغلته الفئة فى التّرتيب قال تعالى : ﴿ وبالوالدين إحساناً وذى القربى واليتامى والمساكين ﴾ إنّ الإحسان بعد أن يصل إلى الوالدين اللّذين ينالان منه حظّهما الموفور ، ينبغى أن يكون ثمّة فضلةٌ من هذا الإحسان كى تشمل فئاتٍ أخرى هى بحاجةٍ إليه . فلا ينبغى أن يسبق إلى الرُّوع أنّ الإحسان ينبغى أن يكون مقصوراً على الوالدين على الرّغم من كون حظّهما منه ينبغى أن يكون الموفور . إنّ ثمّة ذوى القُرْبى الّذين ينبغى أن يصل إليهم الإحسان الّذى مرّ بالوالدين ابتداءً . ونستطيع أن نفهم أنّ الآية الكريمة إنّما تحثّ على صلة الرّحم الّتى أمر الله سبحانه وتعالى أن توصل . وقد جاء فى سورة النّساء[٣] قوله تعالى : ﴿ يا أيّها النّاس اتّقوا ربّكم الّذى خلقكم من نفسٍ واحدةٍ وخلق منها زوجها وبثَّ منهما رجالاً كثيراً ونساءً . واتّقوا الله الّذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا ﴾ . ومن الواضح أنّ الإحسان إلى الوالدين وإلى ذوى القربى ينبغى أن يكون فى كلّ الأحوال وبدون أىّ استثناء وإن كان الوالدان غنيّين وإن كان الأقرباء أغنياء ، فليس المال سوى وجهٍ واحد من أوجه الإحسان الكثيرة ، لننظر مثلاً إلى أوّل خطبةٍ خطبها المصطفى ﷺ بالمدينة المنوّرة بعد الهجرة . إنّ ممّا جاء فيها قولَه عليه الصّلاة والسلام[٤] : « فمن استطاع أن يقى وجهه من النّار ولو بشقّ تمر

---

(١) تفسير القرطبى ٤٠٨

(٢) تفسير الطّبرى ٣٠٩/١ .

(٣) الآية ١

(٤) السّيرة النّبويّة لابن هشام ١١٨/٢

تمرةٍ فليفعل ، ومَنْ لم تَجِدْه فبكلمةٍ طيّبة فإنّ بها تُجْزى الحسنةُ عَشْرَ أمثالها إلى سبعمائة ضعف » وجاء فى خطبةٍ أخرى له ﷺ[١] : « وتحابّوا بروح الله بينكم » .

وهكذا يتبيّن أنّ وجوه الإحسان متعدّدة ، وليس المال ، وبخاصّة حينما يكون الوالدان والأقربون أغنياء بشىءٍ ذى كبير بال ، فإنّ ثمّة الكثير من أوجه البرّ الّتى تخرج عن دائرة المال ، أو الّتى لا يستطيع المال أن يقوم مقامها أو يغنى غناءها . وفى الحال الّتى يكون معها الحاجة إلى العون المادّىّ قائمة ، يتضافر المال مع أوجه الإحسان الأخرى من أجل تحقيق صلة الرّحم ، ومن هنا كان الأقربون أولى بالمعروف وكان إيتاء ذوى القربى المال أفضل من إيتائه الّذين يبتعدون عن هذا الميدان لأنّه فى حقّ ذوى القربى صدقةٌ وصلة رحم بينما هو فى حقّ الآخرين صدقةٌ فقط[٢] وقد بيّن المصطفى ﷺ أنّ البرّ بعد الأمّ والأب يتعدّى إلى الأدنى ثمّ الأدنى .

ويلاحظ أنّنا اتّخذنا من أخذ الله تعالى عليه مِنْ بنى إسرائيل الموثق منطلقاً للحديث عن واجب المسلمين تجاه هذه التّكاليف لأنّ ثمّة مجموعةً من الأوامر والنّواهى ، ومنها ما جاء فى هذه الآية الكريمة ، غير قابلةٍ للنّسخ فى كافّة الشّرائع السّماوية كما قيل[٣] عند أبى حنيفة أنّ القرابة إذا كانوا محارم فقراء عاجزين عن التّكسّب وهو موسر ، حقّهم أن ينفق عليهم . وعند الشّافعىّ ينفق على الولد والوالدين فحسب على ما تقرّر فى كتب الفقه[٤] .

وإذا كان ذوو القربى الّذين أمرت الآية الكريمة بالإحسان إليهم ، من الجائز أن يكونوا فى تمام الغنى ، وفى كلّ الأحوال يجب صلتهم ، فإن السّياق يتحوّل إلى فئتين بعيدتين عن المخاطب ، ويصحّ أن تكون أولاهما بالذّات ، غير بعيدةٍ من ذوى القُرْبى . أمّا هاتان الفئتان فهما اليتامى والمساكين . ويلاحظ بشأن اليتامى أنّهم يصحّ أن يشتركوا مع ذوى القربى فى أكثر من صفة . إنّهم يصحّ أن يكونوا امتداداً لذوى القُرْبى وعليه يكون

---

(١) السّيرة النّبوية لابن هشام ٢/١١٩

(٢) انظر مثلاً رياض الصّالحين ١٥٨

(٣) انظر كتابنا تأمّلات فى سورة الإسراء ٩٩ فما بعدها فى أثناء دراستنا لآيات الحكمة .

(٤) البحر المحيط ٦/٣٠

النّصّ عليهم من باب زيادة العناية بهم . ثمّ إنّهم يصحّ أن يشتركوا مع ذوى القربى فى الغنى وعدم الحاجة ، وتظلّ ضرورة العناية بهذه الفئة قائمة ، لأنّ أموالهم بحاجةٍ إلى رعايةٍ وعناية ، ولأنّ ثمة الكثير ممّا يحتاجون إليه ممّا لا يستطيع تحقيقه عن طريق المال . وكأن ثمّة صفةً مشتركةً بين كلّ اليتامى ، من الأقرباء ومن غيرهم وهى ضعفهم وقلّة حيلتهم وعجزهم عن تحقيق بعض مطالبهم ، خاصّة تلك الّتى لا يستطيع المال تحقيقها . ومن هنا كانت العناية كبيرةً فى الإسلام باليتامى . وقد قال عزّ من قائل[1] ﴿ فأمّا اليتيم فلا تقهر ﴾ .

فإذا تحوّلنا إلى الفئة الأخيرة الّتى نصت عليها الآية الكريمة وهى فئة المساكين تبيّنّا أنّها أبعد الفئات عن المخاطبين . والمسكين هو الّذى أسكنه الفقر عن الحركة وأذلّته الحاجة والفاقة . وربّما كانت المسكنة بسبب العجز ، وقد تكون بسبب عدم مواتاة الفرصة للعمل مع القدرة عليه . وفى كلّ الأحوال يظلّ الفقر هو السّمة المميّزة للمسكين الّذى أسكنته الفاقة ومنعته من الحركة ، ويظلّ أبعد الفئات المذكورة فى الآية الكريمة عن المخاطب . ولا نستطيع فى هذه المناسبة إلاّ أن نتذكّر الرّكن الثّالث من أركان الإسلام وهو إيتاء الزّكاة . وقد أمرت هذه الآية الكريمة بعد ذلك بإيتاء الزّكاة وهى الحقّ الّذى فرضه الله تعالى للفقير من مال الغنىّ والّذى ينبغى أن يقدّمه الغنىّ عن طيب نفسٍ وانشراح صدر لمن يستحقّه من الفئات الثّمان الّتى نصّت عليها الآية الكريمة من سورة التّوبة . قال تعالى[2] : ﴿ إنّما الصّدقات للفقراء والمساكينِ والعاملين عليها والمؤلّفة قلوبُهُمْ وفى الرّقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السّبيل فريضةً من الله والله عليمٌ حكيم ﴾ .

ويأتى وراء الزّكاة المفروضة ، زكاة المال وزكاة الفطر ، صدقة التّطوّع . وقد أثنت هذه السّورة الكريمة فى أوّلها على المنفقين أموالهم الّتى رزقهم الله تعالى إيّاها . قال تعالى[3] : ﴿ الم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدًى للمتقين . الّذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصّلاة وممّا رزقناهم ينفقون ﴾ والمعروف أنّ هذه السّورة الكريمة قد

---

(١) سورة الضّحى ٩
(٢) سورة التّوبة ٦٠
(٣) سورة البقرة ١ — ٣

أفاضت فى الحديث عن إنفاق الأموال ووجوه البرّ فى هذ المجال بدرجةٍ كبيرة تكاد تكون أكبر درجات الحديث عن إنفاق الأموال فى أى سورةٍ أخرى من سور القرآن الكريم .

ولمّا كانت حبّات الميثاق تجمع بين العمل وبين القول ، ويغلب عليها العمل ، ولمّا كانت الآية الكريمة تريد أن تجمع الكمال من طرفيه العمليّ والقوليّ ، فقد كان للقول حظّه الموفور وذلك فى قوله تعالى : ﴿ وقولوا للنّاس حُسْنا ﴾ فالمطلوب من بنى إسرائيل أن يكون قولهم لكلّ النّاس حسناً ، برّهم وفاجرهم ، صالحهم وطالحهم ، وأن يكون لسانهم رطباً ، ويقترن بذلك وبطريقةٍ عفويّة لين الجانب وخفض الجناح . والله سبحانه وتعالى يخاطب رسوليه موسى وهارون عليهما السّلام آمراً لهما بأن يقولا قولاً ليّناً لطاغية زمانه وكلّ زمان فرعون مصر . قال تعالى[1] : ﴿ اذهبا إلى فرعون إنّه طغى ، فقولا له قولاً ليّناً لعلّه يتذكّر أو يخشى ﴾ .

ويلاحظ بشأن القول أنه شاملٌ لكلّ الناس ، وذلك لسهولة القول وإمكان شموله كلَّ النّاس . وحينما يكون لطيف القول وعذب الكلام من نصيب كلّ النّاس بدون تعيينٍ لأيّ فئةٍ من الفئات ، يكون معنى ذلك أنّ حظّ الفئات الّتى نصّت عليها الآية الكريمة هو الموفور من باب الأولى والأحرى . وقد جاء فى حقّ الوالدين مثلاً قوله تعالى فى سورة الإسراء[2] : ﴿ وقضى ربّك ألاّ تعبدوا إلاّ إياه وبالوالدين إحسانا . إمّا يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما افّ ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريما ﴾ .

وهكذا يتبيّن أنّ الآية الكريمة تخصّ القول الحسن بحظّه الموفور من الحديث رغم دخوله فى الإحسان الشّامل لكلّ الفئات الّتى نصّ عليها السّياق . فليس المقصود بالإحسان الفعل الحسن فحسب ، وهذا مفهوم ، ومفهومٌ كذلك فرط الاهتمام بالقول الحسن الّذى نصّ عليه بصريح اللّفظ بعد التلميح إليه فى الحديث عن الإحسان . وإنّ الاهتمام بالقول الحسن ذلك الاهتمام الّذى تمثّل فى عودة الحديث إليه على جهة الخصوص ، كان هو بدوره مهيّئاً لنوعٍ آخر من الاهتمام تمثّل فى عودة الحديث مرّةً

---

(١) سورة طه ٤٣ ، ٤٤ (٢) الآية ٢٣

أخرى إلى عبادة الله تعالى والحديث على جهة الخصوص عن ركنين عظيمين هما الصّلاة والزّكاة . ومعروفٌ أنّ الصّلاة عماد الأعمال البدنيّة ، وأنّ الزّكاة عماد الأعمال الماليّة . قال تعالى : ﴿ وأقيموا الصلاة وآتوا الزّكاة ﴾ ، ويلاحظ الجمع بين الصّلاة والزّكاة فى هذا الموضع من بين ما يزيد على الثّمانين موضعاً فى القرآن الكريم تمّ فيها الجمع بين الصّلاة والزّكاة دليلاً على أهمّيّتهما .

ومع أنّ إقامة الصلاّة وإيتاء الزّكاة يختلفان عند بنى إسرائيل عنهما عندنا نحن المسلمين فإنّ الاهتمام بهذين الرّكنين من حيث المبدأ . والمعروف أنّ ثمّة مجموعةً من الأحكام ، ومنها الصّلاة والزّكاة ، غير قابلةٍ للنّسخ فى كلّ الشّرائع . ومعروفٌ وراء ذلك فضل الله تعالى على الأمّة الإسلامية حيث إنّه لا مجال فى الإسلام لأىّ تغييرٍ أو تبديل فى أىّ شعيرة من الشّعائر ، ويعود ذلك بفضل الله تعالى إلى حفظه جلّ وعلا لكتابه العزيز إلى أن يرث الله تعالى الأرض ومن عليها ورعايته لسنّة حبيبه المصطفى ﷺ المبيّنة للقرآن الكريم . وقد حدث فى المقابل لدى أتباع الدّيانات السّماويّة السّابقة الكثير من التّحريف لأنّه جلّ وعلا لم يتكفّل بحفظ أىّ من الكتب السّماويّة السّابقة إنّما أوكل جلّ وعلا مهمّة الحفظ إلى رجال الدّين الذين نبذوا كتاب الله تعالى وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلاً .

وبتأمّلنا للقسم الأخير من الآية الكريمة يتّضح تولىّ بنى إسرائيل بأجسامهم عن الميثاق الّذى أخذه الله تعالى عليهم وإعراضهم بقلوبهم عنه . قال تعالى : ﴿ ثمّ تولّيتم إلاّ قليلاً منكم وأنتم معرضون ﴾ . ونستطيع أن نفهم حرف العطف « ثمّ » الدّالّ على الترتيب مع التّراخى فى ضوء نظرتنا لهذه الآية الكريمة من سورة الحديد . قال تعالى[1] : ﴿ ألم يأن للّذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحقّ ولا يكونوا كالّذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثيرٌ منهم فاسقون ﴾ .

ونستطيع أن نفهم من هذه الآية الكريمة أنّ أهل الكتاب تمسّكوا بتعاليم الكتاب السّماوىّ الذى أوحاه الله تعالى إلى رسولهم فترةً من الزّمن . ويلاحظ أنّ قليلاً منهم فقط

---

(١) سورة الحديد ١٦

هم الّذين ظلّوا متمسّكين بتلك التّعاليم حريصين على تطبيقها ، وهذا هو الّذى نتبيّنه حتّى يومنا هذا فى تحوّل أفرادٍ وجماعات من أهل الكتاب فى كلّ وقتٍ من الأوقات مسلمين لله ربّ العالمين يشهدون أن لا إلٰه إلاّ الله وأنّ محمّداً رسول الله . أمّا غالبيّة أهل الكتاب فإنّهم بسبب بعد العهد بنزول الكتاب السّماوىّ على رسول الله تعالى إليهم ، وطول الأمد على أخذ الله تعالى العهد المؤكّد عليهم قد أخذوا يبتعدون قليلاً قليلاً عن الطّريق القويم والصّراط المستقيم فقست قلوبهم فغدت كالحجارة أو أشد قسوة وغدوا فى مجموعهم فاسقين خارجين عن النّهج القويم والطّريق المستقيم .

ومن الطّبيعىّ حينما يكون الابتعاد عن الصّراط المستقيم مستمرّاً ، والخروج عن النهج القويم متتابعاً أن يكون الجيل التّالى أسوأ من سابقه ، وأن تكون الذرارى شرَّ خلْف (بسكون اللاّم) وحينما نطبّق هذا القانون فى حقّ بنى إسرائيل أتباع موسى عليه السّلام فإنّا نستطيع أن نفهم لماذا كان بنو إسرائيل المعاصرون للمصطفى ﷺ ، فى مجموعهم ، شرّ خَلْف ، وهذا هو الّذى يوحى به مخاطبة القسم الأخير فى الآية الكريمة للمعاصرين للمصطفى ﷺ ﴿ ثمّ تولّيتم إلاّ قليلاً منكم وأنتم معرضون ﴾ رغم كون التّولّى بالأجساد ابتداءً والإعراض بالقلوب انتهاءً ، قد وضعت بذورهما منذ عهد اليهوديّة الأولى ، وضربت أوتادهما وشدّت أطنابهما منذ عهد الرّعيل الأوّل المعاصر لموسى عليه السّلام فقد كان ذلك الرّعيل أشدّ خلق الله تعالى تعنّتاً على رسول الله تعالى إليه . إنّ التّولّى بالأجسام والإعراض بالقلوب ، إذا كانا يعودان إلى فجر اليهوديّة المبكّر ، فإنّ الأتباع قد ازدادوا تمادياً فى التّولّى والإعراض ، حتّى ظهرا فى أبشع صورهما على عهد المصطفى ﷺ وكلّنا على علمٍ بدافع الحسد الّذى أكل قلوب بنى إسرائيل على العرب الّذين اصطفاهم الله تعالى بتحوّل الرّسالة الخاتمة إليهم ، وإرسال خاتم النّبيّين فيهم ، وإنزال أشرف الكتب السّماوية بلسانهم . وقليلٌ من المعاصرين للمصطفى ﷺ من بنى إسرائيل من سلم من داء الحسد فلم يتولّ و لم يعرض بل اعتنق دين الإسلام الّذى رضيه الله تعالى لعباده ونال شرف صحبة المصطفى ﷺ . وكان عدد هؤلاء تسعة وثلاثين شخصا فيما يقال . وهذا العدد قليلٌ بالقياس لعدد بنى إسرائيل فى تلك المنطقة وفى تلك

الفترة ، وهذا القليل امتدادٌ للقليل الّذى نصّ عليه القسم الأخير من الآية الكريمة : ﴿ ثمّ تولّيتم إلا قليلاً منكم وأنتم معرضون ﴾ .

وبما أنّ هذه الحبّات من عقد الحكمة هى من جملة التعاليم غير القابلة للنّسخ فى سائر الشّرائع فمعنى هذا أنّا نجد الأدلّة على هذه الحبّات من عقد التّعاليم السّماويّة الحكيمة الّتى أخذ الله سبحانه وتعالى على بنى إسرائيل العهد المؤكّد بشأنها ، نجد الأدلّة الكثيرة عليها من القرآن الكريم وسنّة المصطفى ﷺ .

الآيــة رقــم (٨٤)

قال تعالى : ﴿ وإذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من دياركم ثمّ أقررتم وأنتم تشهدون ﴾ .

سفك الدّم : صبّه وإراقته[١] لا تسفكون دماءكم : المراد بنو إسرائيل ودخل فيه بالمعنى من بعدهم[٢] .

أنفسكم : النّفس مأخوذةٌ من النّفاسة . فنفس الإنسان أشرف ما فيه[٣] .

والدّار : المنزل الّذى فيه أبنية المقام بخلاف منزل الارتحال . وقال الخليل : كلّ موضعٍ حلّه قومٌ فهو دارٌ لهم وإن لم تكن فيه أبنية . وقيل : سمّيت داراً لدورها على سكّانها كما سمّى الحائط حائطاً لإحاطته على ما يحويه[٤] .

فإن قيل : وهل يسفك أحدٌ دمه ويخرج نفسه من داره ؟ قيل له : لمّا كانت ملّتهم واحدة وأمرهم واحدا وكانوا فى الأمم كالشّخص الواحد جعل قتل بعضهم بعضاً وإخراج بعضهم بعضاً قتلاً لأنفسهم ونفياً لها[٥] وإنما كان الأمر أنّ الله تعالى قد أخذ على بنى إسرائيل فى التّوراة ميثاقاً ألاّ يقتل بعضهم بعضاً ولا ينفيه ولا يَسترقّه ولا يدعه يسرق

---

(١) تفسير الطّبرى ٣١٢/١
(٢) تفسير القرطبىّ ص ٤١٢
(٣) تفسير القرطبىّ ص ٤١٢
(٤) تفسير القرطبىّ ص ٤١٢
(٥) تفسير القرطبىّ ص ٤١٢

إلى غير ذلك من الطّاعات[١] .

أقرّ بالشّيء : اعترف به[٢] ثمّ أقررتم أى بالميثاق واعترفتم بلزومه أو اعترفتم بقبوله ورضيتم به[٣] .

وأنتم تشهدون « قال أبو جعفر : وأولى الأقوال فى تأويل ذلك بالصّواب عندى أن يكون قوله : وأنتم تشهدون ، خبراً عن أسلافهم وداخلاً فيه المخاطبون منهم الّذين أدركوا رسول الله ﷺ كما كان قوله : وإذ أخذنا ميثاقكم خبراً عن أسلافهم بأن كان خطاباً للّذين أدركوا رسول الله ﷺ »[٤] .

إذا كان منطلق الآية الكريمة السّابقة عبادة الإلٰه المعبود الواحد ، ويرتبط بذلك كلّ مظاهر البرّ والإحسان انطلاقاً من الوالدين وانتهاءً بالمساكين مع النّصّ على العبادتين عماد الأعمال البدنيّة وعماد الأعمال الماليّة وهما على التّوالى إقامة الصّلاة وإيتاء الزكاة ، فإنّ منطلق الآية الكريمة الّتى نحن بصددها العقيدة الواحدة وما يرتبط بذلك من وطنٍ واحدٍ مشترك . والآية الكريمة على غرار كلّ آيةٍ فى هذا القِسم من سورة البقرة تبدأ بالقول « وإذ » تنبيهاً إلى المعنى الجديد الّذى ترشد إليه وتهتمّ به . والمعنى على غرار ما سبق واذكر يا محمّد ، أو واذكروا يا بنى إسرائيل . ولا زلنا بصدد الأخذ للميثاق من بنى إسرائيل ، بمعنى العهد المؤكّد ، الّذى سبق وأن نصّت الآية السّابقة على أخذ الله تعالى له من بنى إسرائيل . والمعنى هنا : واذكروا يابنى إسرائيل إذ أخذ الله سبحانه وتعالى ميثاقكم والعهد المؤكّد عليكم باليمين أو بخلافه لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من دياركم . ولا زلنا بصدد النّوع من التّعبير الّذى صادفناه فى الآية الكريمة السّابقة « لا تعبدون » بل إنّنا الآن بصدد هذا النّوع من التّعبير الّذى يجيء مرّتين اثنتين « لا تسفكون » « لا تخرجون » والمعنى على غرار « لا تعبدون » الّذى يفيد النّهى بمعنى لا تعبدوا إلا الله ، وهو هنا : لا تسفكوا دماءكم ولا تخرجوا أنفسكم من دياركم .

ومعروفٌ أنّ الإنسان لا يسفك دمه ، ولا يخرج نفسه من داره . وإنّما المقصود :

---

(١) تفسير القرطبىّ ص ٤١٣
(٢) البحر المحيط ١/٢٨١
(٣) البحر المحيط ١/٢٨٩
(٤) تفسير الطبرىّ ١/٣١٣

لا يسفك بعضكم دم بعضكم الآخر وأنتم إخوانٌ فى العقيدة ، ولا يخرج بعضكم بعضكم الآخر من دياره ، لأنّ اليهوديّة الّتى تدينون بها قد نزّلت الواحد منكم ليس منزلة الأخ من أخيه فحسب بل منزلة المرء من نفسه . وأنتم بناءً على ذلك منهيّون عن أن تسفكوا دماءكم وتريقوها بالحروب وفى الخصام ، وأن تخرجوا أنفسكم من دياركم بالحروب وبالخصام وتجلوها عن ديارها بأىّ وسيلةٍ من وسائل القهر والانتقام . وهل يصحّ عقلاً أن يسفك المرء دمه ويخرج نفسه من دياره ؟ إنّ ذلك لا يصحّ عقلاً وهو كذلك لا يصحّ شرعاً وهذا من باب الأَوْلى والأحرى . وهذا ما نصّت عليه الآية الكريمة وبيّنت أنّ الله سبحانه وتعالى قد أخذ على بنى إسرائيل الميثاق بشأنه وإذ أخذنا » وإنّ نون العظمة الّتى تعود إلى الذّات العليّة فى الآيتين الكريمتين تشى بعظمة الأحوال والأمور الّتى أخذ الميثاق من بنى إسرائيل بشأنها ، ابتداءً بتوحيد الله تعالى وانتهاءً بالنّهى عن إخراج أنفسهم من ديارهم .

ويلاحظ أنّ الآية الكريمة تنهى عن ارتكاب محظورين ، يترتّب فى الغالب ثانيهما على أوّلهما ، أمّا الأوّل فهو إراقة بعضهم دماء بعض ، ويكون ذلك عادةً بالحروب . وأمّا الثّانى فهو الإرغام على الجلاء عن الأوطان ، ويكون ذلك عادةً تبعًا للانتصار على الخصوم . ولا يمنع ذلك من كون سفك الدّم يصحّ أن يكون وليد نزاعٍ فردى أو خصامٍ غير جماعى ، وكون الإخراج يصحّ أن يكون من غير حرب ولكن بسبب الظّلم والطّغيان . ونظلّ نتبين دائماً أنّ الآية الكريمة قد نبّهت على الغالب الأعم ورتّبت المحظورين بناءً على احتمال وقوعهما .

وتنص الآية الكريمة على كون الّذين يتوّجه إليهم الخطاب فى هذه السّورة المدنيّة ، وذلك فى صيغة جماعة المخاطبين ، قد أقرّوا واعترفوا . وسبق أن تبيّنّا أنّ أسلوب الخطاب فى العديد من آيات هذا القسم من السّورة الكريمة يراد به أسلافهم فى المقام الأوّل ، وإنّما كان الخطاب متّجهاً إلى المعاصرين للمصطفى ﷺ لأنّهم محطّ الاهتمام وموضع الرّجاء إن كان ثمّة رجاء فى صلاح القوم وهم الّذين يدورون فى فلك أسلافهم من ارتكاب كلّ محظور واقتراف كلّ خطيئة .

والملاحظ أنّنا فى التّعقيب بصدد تقرير أمرين اثنين وهما الإقرار والشّهادة . ونحن حينما نتبيّن أنّ الحديث فى هذا القسم من السّورة يقصّ خبر الماضين ويحذّر الحاضرين ، وأنّ الميثاق إنّما أخذ على الأسلاف فهم الّذين شهدوا أخذ الموثق بل إنّهم هم الّذين آتوه وأقرّوا به واعترفوا برضاهم عنه ، وأنّ الّذرارى بناءً على التّعاليم الموصولة خلال الأجيال حتّى انتهت إلى المعاصرين للمصطفى ﷺ يصحّ أن يقوموا بدور الشّهود على الأسلاف بأخذ الموثق عليهم ، حينما نتبيّن ذلك ونتبيّن وراءه أيضاً أنّ الإقرار أو الاعتراف إنّما يكون من الّذى يعنيه الأمر والمقرّ أو المعترف هنا هم الأسلاف ، وأنّ الإدلاء بالشّهادة إنّما يكون من قبل الشّخص الآخر غير المقرّ أو المعترف ، والشّاهد هنا أو الشّهود هم الذّرارى ، لكلّ ذلك نستطيع أن نذهب إلى القول بأنّ القول ﴿ ثم أقررتم ﴾ يشمل الآباء والأجداد الّذين أخذ عليهم الميثاق وأنّ القول ﴿ وأنتم تشهدون ﴾ يشمل الذرارى المعاصرين للمصطفى ﷺ . وإنّما شمل الخطاب ﴿ ثمّ أقررتم ﴾ المعاصرين لأنّ إقرار الآباء واعترافهم وهم المشاركون لهم فى العقيدة إقرارٌ للأبناء واعتراف . وإنّما شمل الخطاب ﴿ وأنتم تشهدون ﴾ المعاصرين وهم الّذين ولدوا متأخّرين ، لأنّ المعلومات المتواترة الّتى انتهت إليهم يصحّ أن تنزّلهم منزلة الشّهود الّذين شهدوا أخذ الميثاق وعاينوه .

وفى كلّ الأحوال تظلّ مسئوليّة المعاصرين كبيرة ومهمّتهم خطيرة .

وفى كلّ الأحوال كذلك يظلّ الآباء والأجداد فى حكم من قام بدور كلٍّ من المقرّ المعترف والشّاهد . وواضحٌ ترتيب هذين الأمرين فى القضايا ، الاعتراف والشّهادة ، وواضحٌ مدى ثبوت القضيّة فى حال وقوع الاعتراف والشّهادة . ولا يخفى أنّ الأسلاف يتجاوزون دور المقرّ المعترف إلى دور الشّاهد . أليسوا شهود أخذ الموثق الّذى آتوه ؟ بلى . إذن قيامهم بدور الشاهد أصيل وحيوىّ ومتمّم للإقرار ومكملٌ للاعتراف .

الآيــة رقــم (٨٥)

قال تعالى : ﴿ ثمّ أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم تظاهرون عليهم بالإثم والعُدوان وإن يأتوكم أسارى تفادوهم وهو محرّم عليكم إخراجهم ، أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض ، فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلاّ خزيٌ فى الحياة الدّنيا ويوم القيامة يردّون إلى أشدّ العذاب . وما الله بغافل عما تعملون ﴾ .

ثمّ أنتم هؤلاء : التّقدير : يا هؤلاء[١] .

تظاهرون : تتعاونون ، كأنّ المتظاهرين يسند كلّ واحدٍ منهم ظهره إلى صاحبه . والظّهر المعين[٢] وفى تبيين السّبب فى تفسير التّظاهر بالتّعاون يقول الطّبرىّ[٣] : « لتقوية بعضهم ظهر بعض . فهو تفاعل من الظّهر وهو مساندة بعضهم ظهره إلى ظهر بعض » .

الإثم : الذّنب[٤] والمعصية[٥] .

العدوان : تجاوز الحدّ فى الظّلم والبغى[٦]

أسارى:نصب على الحال .... وفُعالى (بضمّ الفاء) هو الأصل . وفَعَالى (بفتح الفاء) داخلةٌ عليها . وحكى عن محمّد بن يزيد قال : يقال أسير وأسرى وأسارى وقرىء بهما . وقيل : أسارى بفتح الهمزة وليست بالعالية[٧]والأسير هو المأخوذ على سبيل القهر والغلبة[٨] مشتقّ من الإسار وهو القِدّ (بكسر القاف) الّذى يشدّ به المِحْمَل ، فسمّى أسيراً لأنّه يشدّ وثاقه . والعرب تقول : قد أسر قتبه[٩] أى شدّه . ثم سمّى

---

(١) تفسير القرطبىّ ٤١٣
(٢) البحر المحيط ٢٨١/١
(٣) تفسير الطّبرىّ ٣١٤/١
(٤) البحر المحيط ٢٨١/١
(٥) الجلالين
(٦) انظر تفسير الطّبرىّ ٣١٥/١
(٧) تفسير القرطبىّ ص ٤١٤
(٨) البحر المحيط ٢٨١/١
(٩) القتب بالتّحريك : الإكاف الصّغير على قدر سنام البعير والجمع أقتاب .

كلّ أخيذٍ أسيراً وإن لم يؤسر[١] « وقال أبو جعفر : وأمّا الّذين قرأوا ذلك أسارى فإنّهم أخرجوه على مخرج جمع فعلان . إذ كان جمع فعلان الّذى له فعلى قد يشارك جمع فعيل كما قالوا : سكارى وسكرى وكسالى وكسلى فشبهوا أسيراً وجمعوه مرّةً أسارى وأخرى أسرى بذلك »[٢] .

قرأ نافع وحمزة والكسائىّ تفادوهم . والباقون تفدوهم من الفداء . والفداء طلب الفدية من الأسير الّذى فى أيديهم .... ويقال : فداه وفاداه إذا أعطى فداءه فأنقذه ..... وتفادوا أى فدى بعضهم بعضاً ..... وفاديت نفسى إذا أطلقتها بعد أن دفعت شيئا بمعنى فديت . ومنه قول العبّاس للنّبىّ ﷺ : فاديت نفسى وفاديت عقيلا . وهما فعلان يتعدّيان إلى مفعولين الثّانى منهما بحرف الجرّ . تقول : فديت نفسى بمالى وفاديته بمالى[٣] ويقول الطّبرىّ[٤] : « وأمّا من قرأ تفادوهم فإنّه أراد أنّكم تفدونهم من أسرهم ويفدى منكم الّذين أسروهم ففادوكم بهم أسراكم منهم » .

وهو : يقول الزّمخشرىّ[٥] : « وهو ضمير الشأن . ويجوز أن يكون مبهماً تفسيره : إخراجهم » وارتفاع هو على الابتداء[٦] ويقول القرطبىّ[٧] : « هو مبتدأ وهو كناية عن الإخراج . ومحرّم خبره . وإخراجهم بدل من هو . وإن شئت كان كناية عن الحديث والقصّة ، والجملة الّتى بعده خبر أى : والأمر محرّمٌ عليكم إخراجهم . فإخراجهم مبتدأ ثان ومحرّم خبره والجملة خبر عن هو . وفى محرّم ضمير ما لم يُسمّ فاعله يعود على الإخراج ، ويجوز أن يكون محرّم مبتدأ وإخراجهم مفعول ما لم يسمَّ فاعله يسدّ مسدّ خبر محرّم والجملة خبر عن هو .... ويقرأ وهْو بسكون الهاء لثقل الضمّة » .

أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض . « هذا استفهامٌ معناه التّوبيخ

---

(١) تفسير القرطبىّ ص ٤١٥

(٢) تفسير الطّبرىّ ١/٣١٧ يريد شبّهوا أسيراً بذلك وجمعوه ... إلخ .

(٣) تفسير القرطبىّ ص ٤١٥ (٤) تفسير الطّبرىّ ١/٣١٧

(٥) الكشاف ١/٢٢٥ (٦) البحر المحيط ١/٢٩٢

(٧) تفسير القرطبىّ ص ٤١٥ وانظر تفسير الطّبرىّ ١/٣١٧

والإنكار . و لم يذمّهم على الفداء بل على المناقضة إذ أتوا ببعض الواجب وتركوا بعضاً . وتكون المناقضة آكد فى الذّمّ »[١] « قال علماؤنا : كان الله تعالى قد أخذ عليهم أربعة عهود . ترك القتل ، وترك الإخراج ، وترك المظاهرة ، وفداء أساراهم . فأعرضوا عن كلّ ما أمر به إلاّ الفداء فوبّخهم الله على ذلك توبيخاً يُتلى »[٢] .

والكتاب : التّوراة[٣] .

الجزاء المقابلة ويطلق فى الخير والشّرّ[٤] قال : وجزاهم بما صبروا .

وقال : فجزاؤهم جهنّم[٥] .

الخزي : الهوان والذّلّ[٦] .

يوم القيامة : عبارة عن زمان ممتدّ إلى أن يفصل بين العباد ويدخل أهل الجنّة الجنّة وأهل النّار النّار[٧] .

يردّون : يصيرون[٨] .

وأشدّ العذاب : الخلود فى النّار . وأشدّيّته من حيث إنّه لا انقضاء له أو أنواع عذاب جهنّم لأنّها دركات مختلفة[٩] .

فى حديث الآية الكريمة السّابقة عن الميثاق الّذى أخذه الله تعالى على بنى إسرائيل بشأن علاقة الإسرائيلىّ بأخيه فى العقيدة نصّت على أمرين خطيرين وهما عدم سفك الواحد دم أخيه ، وعدم إخراجه من دياره . ومعروفٌ أنّ سفك الدّم ليس من الضّرورىّ أن يرتبط به ضربة لازب إزهاق الأرواح ، إذ يصحّ أن يكون ثمّة إراقة دماء دون أن يكون ثمّة ارتكاب جريمة قتل ، وإن كان الغالب أن يرتبط إزهاق النّفوس بسفك الدّماء . فما الّذى يلاحظ على الآية الكريمة الّتى نحن بصددها والّتى يُبْنى معناها على

---

(١) البحر المحيط ١/٢٩٣
(٢) تفسير القرطبىّ ص ٤١٦
(٣) تفسير القرطبىّ ص ٤١٦
(٤) البحر المحيط ١/٢٨٢
(٥) البحر المحيط ١/٢٩٣
(٦) انظر الجلالين وتفسير القرطبىّ ص ٤١٦ والبحر المحيط ١/٢٨٢ و ٢٩٣
(٧) البحر المحيط ١/٢٩٤
(٨) البحر المحيط ١/٢٩٤
(٩) البحر المحيط ١/٤٩٤

معنى الآية الكريمة السّابقة ؟ الّذى يلاحظ هو أنّ الآية الكريمة فى طريقة عرض القرآن الكريم العجيبة للمعانى الّتى تبدو جديدةً قديمةً فى آنٍ واحد ، تشير إلى الأمرين المنهىّ عنهما فى طريقة تبدو شبه جديدة ، وتضيف إلى هذين الأمرين أمراً ثالثاً منهيًّا عنه كذلك ، وقد ارتكب بنو إسرائيل المحظورات الثّلاثة ، كما تشير الآية الكريمة إلى أمرٍ رابع هو الوحيد الّذى ائتمر بشأنه بنو إسرائيل من الأوامر الأربعة فتورّطوا فى التّناقض إزاء أوامر الله تعالى ونواهيه وظهروا فى صورة من يؤمن بالبعض القليل من تعاليم التّوراة ويكفر بالبعض الكثير . هذا إلى أنّ الأمر الرّابع الّذى امتثلوه أبسط الأمور الأربعة وأهونها ، وهذه هى الأمور الأربعة أو المحظورات . عدم سفك الدّماء . وعدم إخراج بعضهم بعضاً من ديارهم . وعدم التّظاهر على إخوانهم لإخراجهم من ديارهم بالإثم والعدوان . وأخيراً مفاداة أسرى بنى عقيدتهم وعدم أسرهم .

فكيف تحدّثت الآية الكريمة عن الأمر الأوّل فى الطّريقة الّتى ذهبنا إلى القول بأنّها طريقةٌ جديدةٌ قديمة ؟ لقد عرفنا أنّ الآية الكريمة السّابقة نهت بنى إسرائيل عن سفك بعضهم دماء بعض ، كما عرفنا أنّ السّفك يصحّ أن يقترن به القتل ويصحّ ألاّ يقترن به . فإذا تأملنا حديث الآية الكريمة التّالية عن هذا الأمر الأول تبيّنّا أنّها تتجاوز مرحلة سفك الدّماء الّتى يصحّ ألا يقترن بها القتل ، إلى عمليّة القتل ذاتها الّتى تورّط فيها بنو إسرائيل . ومع من هم تورّطوا فى إزهاق الأرواح ؟ مع إخوانهم فى العقيدة الّذين نزّلوا منهم منزلة الأنفس على غرار تنزيل الآية الكريمة السّابقة دماء إخوانهم منزلة دمائهم هم أنفسهم .

قال تعالى : ﴿ ثمّ أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم ﴾ والمعنى : ثمّ أنتم يا هؤلاء يا بنى إسرائيل يا من أخذ الله سبحانه وتعالى العهد المؤكد بألاّ تسفكوا دماءكم تتجاوزون مرحلة السّفك عصياناً لأوامر الله تعالى إلى أبعد المراحل التّالية إلى مرحلة قتل إخوانكم فى العقيدة الّذين تعلمون أنّهم ينزّلون منكم منزلة الأنفس ، هذا إلى كونكم تعلمون فى التّوراة أنّ من قتل نفساً بغير نفسٍ أو فسادٍ فى الأرض فكأنّما قتل النّاس جميعًا فكيف إذا كانت تلك النّفس من إخوتهم فى العقيدة ، وكيف إذا تجاوزوا قتل النّفس الواحدة إلى قتل

الأنفس . جاء فى سورة المائدة[١] بشأن التّوراة قوله تعالى : ﴿ وكتبنا عليهم فيها أنّ النّفس بالنّفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسّنّ بالسّنّ والجروح قصاص . فمن تصدقّ به فهو كفّارة له . ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظّالمون ﴾ وقوله تعالى[٢] : ﴿ من أجل ذلك كتبنا على بنى إسرائيل أنّه من قتل نفسًا بغير نفسٍ أو فسادٍ فى الأرض فكأنّما قتل النّاس جميعًا ومن أحياها فكأنّما أحيا النّاس جميعًا ، ولقد جاءتهم رسلُنا بالبيّنات ثمّ إنّ كثيراً منهم بعد ذلك فى الأرض لمسرفون ﴾ .

فإذا تحوّلنا إلى الأمر الثّانى أو المحظور الثّانى الّذى عبرّت عنه الآية الكريمة السّابقة فى القول : ﴿ ولا تخرجون أنفسكم من دياركم ﴾ تبيّنّا أنّ حديث الآية الكريمة عن هذا المحظور مستفيض . إنّها من ناحية تنصّ على طبيعة المحظور على وجه الدّقّة والتّحديد : ﴿ وتخرجون فريقا منكم من ديارهم ﴾ وتنصّ على الوسيلة الّتى تمّ بها الإخراج وهى تظاهر بعض بنى إسرائيل على بعضهم الآخر ، وتنصّ على الباعث على هذا التّظاهر إنّه ذو شقّين إثمٌ وعدوان ، ذنبٌ وطغيان ، معصيةٌ وجرأةٌ على تعاليم الرّحمٰن . وتنصّ أخيراً على أنّ إخراج إخوانهم فى العقيدة من ديارهم أمرٌ محرمٌ عليهم تحريماً قطعيّاً بنصّ التّوراة : ﴿ تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان وإن يأتوكم أسارى تفادوهم وهو محرّم عليكم إخراجهم ﴾ .

والحقيقة أنّا حينما نتأمّل المحظورات الثّلاثة الّتى ارتكبها بنو إسرائيل فى حقّ إخوانهم فى العقيدة نتبيّن اهتمام الآية الكريمة الكبير بالإخراج من الدّيار ممّا يفهم معه مشقّة هذا الأمر على النفوس ومرارته المستمرّة مدى الحياة والّتى لو فرض أنّها انتهت فى حقّ الّذين أخرجوا بالموت ومغادرتهم هذه الحياة ، فإنّ كلاً من المشقّة والمرارة يتوارثها اللاّحق عن السّابق . ومع أنّ القتل يرتبط به إزهاق روح فإنّ الموت يضع فى العادة نهايةً للمشاقّ والآلام ، والزّمن مسعفٌ للذّرّيّة على النّسيان خاصّةً إذا كانت الأسباب الموقظة للآلام والأحزان قد اختفت أو هى فى طريقها إلى الاختفاء . أمّا الإخراج من الدّيار فمجدّد

---

(١) الآية ٤٥ (٢) سورة المائدة ٣٢

للآلام .

وإنّ اهتمام الآية الكريمة بالإخراج من الدّيار يذكّرنا بما جاء فى هذا الشأن فى قوله تعالى من سورة النساء[1] : ﴿ ولو أنا كتبنا عليهم أَنِ اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلاّ قليلٌ منهم ولو أنّهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيراً لهم وأشدَّ تثبيتاً . وإذاً لآتيناهم من لدنا أجراً عظيماً . ولهديناهم صراطا مستقيماً ﴾ .

ومع أنّ الحديث فى الآية الكريمة يصحّ أن يتّجه إلى الأسلاف باعتبار هذه عادتهم وذلك دأبهم ، إلاّ أنّ المتأمّل لحال بنى إسرائيل المعاصرين للمصطفى ﷺ عليهم ولنزول آى الذّكر الحكيم هذه ، يتبيّن أنّ الحديث ينطبق تمام الانطباق على حال سكانّ تلك المنطقة من اليهود . إنّهم من ناحية يقتل بعضهم بعضاً ، ويخرج بعضهم من دياره متظاهراً مع بعضهم ومتعاوناً مع بعضهم الآخر بالإثم والعدوان ضد بعض . والعجيب أنّهم فى حال أسر بعضهم ووقوع هذا البعض العدوّ أسيراً هم يفادونهم ويفكّونهم من الأسر بتقديم الغالى والرّخيص . وحينما يسألهم العرب مثلاً فى إنكار كيف تقاتلونهم ، وتخرجونهم من ناحية ثمّ تفادون أسراهم من ناحية أخرى ؟ ويكون الجواب الدّالّ على تناقض القوم واضطرابهم : نحن نفاديهم لأنّ التوراة تأمرنا بذلك ! وإن الآية الكريمة فى أسلوب القرآن الكريم المعجز لتبيّن أبعاد المسألة وتكشف القوم على حقيقتهم . وهذا يقتضينا الحديث بإيجاز عن واقع القوم فى تلك المنطقة فى أثناء نزول القرآن الكريم وقبل ذلك ، كى يتبيّن استهانة القوم بتعاليم التّوراة فإذا استهانوا بعد ذلك بالقرآن الكريم فلا يستغرب مثل هذا الموقف من القوم .

كان يسكن منطقة المدينة المنوّرة من العرب الأوس والخزرج وهم الّذين اعتنقوا الإسلام وآووا ونصروا . وكان يسكن المنطقة من اليهود ثلاث قبائل هى بنو قينقاع وبنو قريظة وبنو النّضير . ويظنّ أنّ هذه القبائل اليهوديّة الثّلاث حلّت بالجزيرة العربيّة مع غيرها من القبائل اليهوديّة فى القرن الأول الميلادى بعد حرب اليهود والرّومان سنة ٧٠م

---

(١) الآيات ٦٦ ــ ٦٨

والّتى انتهت بخراب بلاد فلسطين وتدمير هيكل بيت المقدس وتشتّت اليهود فى أصقاع العالم[١] ويحدّثنا التاريخ أنّ انقسام اليهود ابتداءً كان فى هيئة تحالف قريظة والنّضير ضد بنى قينقاع . وإذا كان اليهود عموماً قد احتلّوا من منطقة المدينة المنـوّرة أخصب بقاعها[٢] فقد استحكم العداء بين هذه القبائل اليهوديّة وكانوا فى القتال أقسى على بنى جنسهم من العرب ، واستحكم عداء بين بنى قينقاع وبين بنى النّضير وبنى قريظة جعل بنى قينقاع يتركون أرضهم وزرعهم ويقتصرون على الصّناعة ويسكنون داخل المدينة المنوّرة الّتى كانت تعرف بـ « يثرب »[٣] ونستطيع أن نفهم وراء ذلك أنّ العداء قد استحكم بين بنى النّضير وبين بنى قريظة . وقد انعكست آثار تلك العداوات فى تحالف هذه القبائل اليهوديّة مع الأوس والخزرج . ومع أنّ اليهود هم السّبب الأوّل وراء الحروب الّتى كانت تنشب بين الأوس والخزرج ابتداءً بيوم سمير وانتهاء بيوم بعاث[٤] فقد اضطرّت هذه القبائل لأن تحالف القبيلتين العربيّتين الأوس والخزرج وانتهى الأمر إلى كون بنى قريظة حلفاء الأوس فى الجاهليّة وبنى قينقاع وبنى النّضير حلفاء الخزرج فى الجاهليّة أيضاً . وإذا كان اليهود سبب العداوات بين الأوس والخزرج وسبب الحروب بين هاتين القبيلتين العربيّتين حتّى لقّب الأوس والخزرج اليهود بـ « الثعالب »[٥] فقد صحّ فى اليهود قول الشّاعر الحكيم[٦] .

ومن يجعل الضّرغام بازاً لصيده يصيّره الضّرغام فيما تصيّدا

---

(١) انظر هنا تاريخ اليهود فى بلاد العرب فى الجاهليّة والإسلام د. إسرائيل ولفنسون ص ٩ .

(٢) انظر مثلاً الخريطة الأثريّة التقريبيّة للمدينة المنوّرة تصميم الأستاذ عبد القدوس الأنصارى فى كتاب آثار المدينة المنوّرة .

(٣) انظر السّيرة النّبويّة للنّدوى ص ١٣٩

(٤) انظر الكامل فى التّاريخ لابن الأثير ٦٥٥/١ والسّيرة النّبوية لابن هشام ٤٢٨/٢ فى طلب زعيم المنافقين عبد الله بن أبىّ ابن سلول من النّبىّ ﷺ أن يحسن إلى مواليه من يهود بنى قينقاع وتفسير ابن كثير ٣٤٠/٤ وموقف ابن أبىّ زعيم المنافقين مِنْ بنى النّضير حلفائه فى الجاهلية . وقد نزلت فى بنى النّضير سورة الحشر .

(٥) انظر مثلاً السّيرة النّبويّة للنّدوىّ ص ١٣٩

(٦) ديوان المتنبّى ٢٨٧/١

فإذا كان اليهود قد أرادوا اتّخاذ العرب الأشاوس وسائل اصطياد بعضهم بعضاً كى يحصل اليهود بفرقة العرب على الأمن والثّراء خاصّةً عن طريق صنع السّلاح وبيعه بين المتحاربين ، فقد كان اليهود أنفسهم وفى الكثير من المناسبات ضحايا تلك الحروب الّتى يثيرونها . وإن النّاظر إلى اليهود يحسبهم جميعاً بينما قلوبهم شتّى ومتفرّقة ، ويتجلّى ذلك فى انقسام تلك القبائل الكبرى اليهوديّة الثّلاث على نفسها ومقاتلة بعضهم بعضاً ومحالفة بعضهم بعض العرب ضد الآخرين من العرب واليهود على حدّ سواء . بل تجاوز الأمر ذلك إلى انقسام بطون القبيلة الواحدة من اليهود وتفرّقهم شيعاً وأحزاباً وقتال بعض البطون بعضاً ومحالفة بعضهم بعض العرب ضدّ البطون اليهودية الأخرى .

وهكذا يتبيّن أنّ بعض اليهود يخالفون تعاليم التّوراة والعهود الّتى قطعوها على أنفسهم فيقتل بعضهم بعضاً عن طريق قتال بعضهم بعضاً وسفك دمه . وما أكثر الأدلّة على ذلك . كما يتبيّن أن بعض اليهود يخالفون تعاليم التّوراة والمواثيق بألاّ يخرج بعضهم بعضاً من دياره وألاّ يظاهر بعضهم بعضاً ضدّ فريق ثالثٍ بقصد إخراج هذا الفريق من دياره . ومن الأدلّة على الإخراج والتّعاون على الإثم والعدوان والتّظاهر بالمعصية والطّغيان إخراج قريظة والنّضير لفريق بنى قينقاع وتظاهر قريظة والنّضير بالإثم والعدوان لإخراج بنى قينقاع من داخل الأراضى الزّراعيّة الخصبة الّتى تقع خارج المدينة المنّورة وإرغامهم على هجر الزّراعة والتحوّل إلى داخل المدينة واحتراف الصنّاعة . بل إنّ اليهود فى حربهم مع بعضهم كانوا أقسى على بنى جنسهم من الآخرين . ويعتبر هذا الواقع لليهود ومخالفاتهم المتكرّرة المتعمّدة لتعاليم التّوراة تبييناً لمثل قوله عزّ من قائل فى الآية الكريمة : ﴿ ثمّ أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان ﴾ .

وانظر إلى جملة « تظاهرون » فى الآية الكريمة الّتى تدلّ على القوّة والبطش والجبروت . ونحن حينما ننظر إلى أصل هذه اللفظة « ظهر » وبعض جوانب رحلتها المعنويّة الطّويلة وشيءٍ من الملابسات المرتبطة بها نستطيع أن ننتهى بإذن الله تعالى من كلّ ذلك إلى معانى القوّة والبطش والجبروت الّتى تفيدها هنا الجملة « تظاهرون » .

فلو أنّا نظرنا إلى جسد الإنسان مثلاً من حيث مقوّماته انتهينا إلى أنّ ثمة عنصرين

رئيسيّين يتكوّن منهما هذا الجسد أحدهما الّذى يعطيه شكله وهو الهيكل العظمى وآخرهما المقوّمات الأخرى سوى العظم . ولو أنّا تساءلنا عن أقوى هذين العنصرين وأطولهما بقاءً بعد الموت ، لاستطعنا أن نفهم من مثل قوله تعالى[1] : ﴿ وكانوا يقولون أئذا متنا وكنّا تراباً وعظاماً أئنّا لمبعوثون ﴾ أنّ العظم هو الأشد قوّة والأطول بقاءً إذ سرعان ما تتحول العناصر الأخرى تراباً بينما يحتاج العظم إلى فتراتٍ طوالٍ كى يصادف هذا المصير . وحينما نتساءل عن أشدّ أجزاء هيكل الإنسان العَظْمِيّ قوّةً فإنّا نستطيع أن نتبيّن أنّه الظّهر . يستوى فى ذلك الإنسان وغير الإنسان . لقد ثبت من التّجربة أنّ حامل الأشياء على ظهره يستطيع أن يحمل ما لا يستطيع حمله من يستعمل رأسه لهذا الغرض . وإنّ عظم فقار ظهر الحيوان أقوى أجزاء عظمه . ويعتبر فقار عظم الإنسان والحيوان معاً ميزان كلٍّ منهما والدّليل على الصّحّة أو المرض غالباً فى حالة صحّة هذا الجزء من العظم أو مرضه . وإنّ مرض هذا الجزء من هيكل الإنسان العظمىّ مثلاً لا يكاد يغنى غناءه ولا ينوب منابه سلامة كافّة الأجزاء الأخرى . لكلّ هذه الملابسات كان من متعلّقات الظّهر القوّة ، وأطلق هذا اللّفظ على أقوى أجزاء الهيكل العظمىّ من الإنسان وغير الإنسان ، وأطلق هذا اللّفظ على الحيوان الّذى يتّخذ ركوباً دليلاً على صحّته وسلامته من الآفات وإمكان امتطاء ظهره والانتفاع به . لننظر إلى ما يقول ابن فارس فى هذا الشأن[2] : « الظاء والهاء والرّاء أصلٌ صحيح واحدٌ يدلّ على قوةٍ وبروز . من ذلك ظهر الشّىء يظَهر ظهوراً فهو ظاهر ، إذا انكشف وبرز . ولذلك سمّى وقت الظُّهر الظَّهيرة ، وهو أظهر أوقات النّهار وأضوؤها . والأصل فيه كلّه ظهر الإنسان ، وهو خلاف بطنه ، وهو يجمع البروز والقوّة . ويقال للرّكاب الظّهر ، لأنّ الّذى يحمل منها الشّىءَ ظهورُها . ويقال رجلٌ مظهرٌ ، أى شديد الظّهر .... والظّهير : البعير القوىّ والظّهير : المُعين ، كأنه أسند ظهره إلى ظهرك . والظُّهور : الغلبة . قال

---

(١) سورة الواقعة ٤٧ وانظر إلى شكوى زكريّا عليه السّلام وهن عظمه الدّالّ على وهن ما يقلّ عن العظم قوّة الآية ٤ من سورة مريم : ﴿ قال ربّ إنّى وهن العظم منّى ﴾ .

(٢) معجم مقاييس اللّغة : « ظهر » ٣/٤٧١

الله تعالى : ﴿ فأصبحوا ظاهرين ﴾ .... ويقولون : جاء فلانٌ فى ظَهْرته وناهِضَتِه أى قومه . وإنّما سُمُّوا ظهرةً لأنّه يتقوىّ بهم » ويقول الرّاغب[1] : « ويعّبر عن المركوب بالظّهر ، ويستعار لمن يُتَقَوَّى به ، وبعيرٌ ظهيرٌ قويٌّ بيّن الظَّهارة وظِهرِيٌّ مُعَدٌّ للرّكوب ... وظَهَرَ عليه غلبه ، وقال : إنّهم إن يظهروا عليكم . وظاهرته عاونته قال : وظاهروا على إخراجكم . وإن تظاهرا عليه ، أى تعاونا . تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان ، وقرِئَ تَظّاهَرونَ الّذين ظاهروهم . وما له منهم من ظهير . أى معين . ولا تكوننّ ظهيراً للكافرين . والملائكة بعد ذلك ظهير . وكان الكافر على ربّه ظهيراً . أى معيناً للشّيطان على الرّحمن .... وظهر الشّىء أصله أن يحصل شيءٌ على ظهر الارض فلا يخفى وبَطَن إذا حصل فى بُطْنان الأرض فيخفى ثمّ صار مستعملاً فى كلّ بارزٍ مبصرٍ بالبصر والبصيرة » .

وهكذا يتبيّن تظاهر بعض اليهود بالإثم والعدوان ضدّ بعض متجاوزين الاستعانة باليهود إلى الاستعانة بسواهم . إنّ مجرّد التّظاهر مخالفٌ للعهد المأخوذ عليهم فى التّوراة فكيف بالتّمادى فى ذلك . وهم إذا لم يرعوا للتّوراة حرمة فهل سيرعون للقرآن الكريم حرمة ؟ الجواب بالنّفى وهذا معروف .

والعجيب فى أمر اليهود هو أنّهم حينما يأتيهم إخوانهم فى العقيدة أسارى بقصد العون على فكاك أسرهم ، ويلحق بذلك بطبيعة الحال حينما يأتى بعض الإخوان فى العقيدة بقصد فكّ الأسرى لدى الآخرين أو لدى المقصودين ، فإنهم يبادرون إلى المساعدة من أجل فكّ الأسرى بدفع الفداء أو بتبادل الأسرى . ويلاحظ أنّ نظرتنا إلى جملة فادى من زاوية المعنيين اللّذين تفيدهما يقال : فاداه إذا أعطى فداءه فأنقذه . وتفادوا أى فدى بعضهم بعضاً . وحينما لا يتورّع اليهود عن قتل إخوانهم فى العقيدة وإخراجهم من ديارهم وتظاهر بعضهم ضدّ بعض بالإثم والعدوان فإنهم لن يتورّعوا عن أسرهم من باب الأَوْلى والأحرى . ومع ذلك فإنّه يبدو أنّ الآية الكريمة من زاوية لفت الانتباه إلى

---

(١) المفردات فى غريب القرآن « ظهر » .

التّناقض الّذى يتورّط فيه بنو إسرائيل ، تريد فى المقام الأول مساعدة اليهود إخوانهم فى العقيدة الّذين قتلوهم وأخرجوهم من ديارهم على فكاك أسراهم . وحينما يسألون كيف تقاتلونهم وتفكّون أسراهم ؟ يكون جوابهم : إنّا نفعل ذلك امتثالاً لأوامر التّوراة . وحينما يسألون ولماذا تقاتلونهم أساساً ؟ يكون جوابهم الوقح الدّالّ على استهانتهم بتعاليم التوراة : إنّما نقاتلهم خشية أن يستذلّ حلفاؤنا من غير اليهود !

وانظر إلى جملة ﴿ إن يأتوكم ﴾ فى ضوء النّظريّة الّتى تقول : إنّ جملة أتى لا تستعمل فى القرآن الكريم إلاّ دليلاً على البعد الزّمانىّ أو المكانىّ أو المعنوىّ ، وهى هنا تدلّ على البعد المكانىّ . ولهذا الإيحاء بالبعد المكانىّ فائدتان كبيرتان فى تعميق المعنى الّذى تريد الآية الكريمة إبرازه . أمّا المعنى الأوّل فهو التّنبيه إلى المكان القصىّ النّائى الّذى أرغم بعض اليهود الطّغاة بعضهم الآخر على بلوغه والانتهاء إليه بعد أن تظاهروا على إخراجهم من ديارهم بالإثم والعدوان . وأمّا المعنى الثّانى فإنّه المعمّق لقبح التّناقض الّذى تورّط فيه اليهود . إنّهم من ناحية يبادرون إلى مساعدة أساراهم مهما نأت بهم الدّيار حينما يأتون إليهم من تلك الأماكن النّائية لهذا الغرض ، وهم فى المقابل أقسى خلق الله تعالى فى مقاتلة إخوانهم فى العقيدة جيرانهم للدّرجة الّتى يرغمونهم معها على ترك ديارهم وهجر حرفهم واللّجوء إلى أعمالٍ أخرى يحصلون على لقمة العيش عن طريقها .

وانظر وراء ذلك إلى عودة الآية الكريمة إلى الحديث عن جريمة إخراج بعض اليهود بعضاً من ديارهم : ﴿ وهو محرّمٌ عليكم إخراجهم ﴾ ونحن نميل إلى كون اسم الضّمير هو يعود إلى الإخراج بقصد تفخيمه والتّنويه بشأنه تمهيداً لذكره بعد ذلك بصريح اللّفظ . ونميل كذلك إلى كون اسم الضمير « هو » مبتدأ خبره محرّم وإخراجهم بدل من هو . وكأنّنا بصدد ذكر الإخراج مرّتين اثنتين لا مرّةً واحدة ، دليلاً على فرط الاهتمام به ، ذلك الإخراج الّذى كان الحديث والنّهى عنه أكثر من مرّة .

وفى أسلوب التّقريع والتّوبيخ والإنكار تستفهم الآية الكريمة فى خطابها بنى إسرائيل : ﴿ أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض ؟ ﴾ أفتؤمنون ببعض الكتاب القليل وهو فداء أسراكم وتكفرون ببعض الكتاب الكثير حينما يقاتل بعضكم بعضاً

ويسفك دمه ويقتله ويخرجه من دياره ويظاهر على إخراجه من دياره بالإثم والعدوان ويساعد على أسر غير اليهودىّ له وربّما أسره هو نفسه . ما أقلّ الطّاعة وأكثر العصيان ما أقلّ الإيمان وأكثر الكفران .

وتقرر الآية الكريمة العقاب الشديد والعذاب الأليم الّذى يستحقّه أولئك النّاكثون للعهود المؤكّدة والمواثيق ولا يستحقّون سواه . إنّه الخزى والذّلّ والهوان فى هذه الحياة الدّنيا بالقتل والأسر وضرب الجزية ويوم القيامة يردّون إلى أشدّ العذاب ، ويصيرون إلى أشقّ العقاب إلى أن ينتهى الأمر بهم إلى النّار وبئس القرار .

وتبيّن الآية الكريمة أنّ الله سبحانه وتعالى الّذى لا يخفى عليه شىءٌ فى الأرض ولا فى السّماء ليس بغافلٍ عمّا تعملون أيّها اليهود المخالفون لتعاليم التّوراة ، يا من تؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض .

ونستطيع أن نفهم أنّ هذا التّهديد وذلك الوعيد فى حقّ بنى إسرائيل يصحّ كلّ منهما فى حقّ كلٍّ من النّصارى ومن المسلمين . إنّ التّوراة والإنجيل يأمر كلٌّ منهما اليهود والنّصارى باتّباع تعاليم الكتابين السّماويّين وفى مقدّمة هذه التّعاليم تصديق خاتم الأنبياء والمرسلين . وإنّ القرآن الكريم يأمر المسلمين باتّباع كلٍّ من الكتاب الكريم وسنّة أشرف الأنبياء والمرسلين . وفى حالة مخالفة تلك التّعاليم يستحقّ الجميع العذاب الشّديد الّذى نصّت عليه الآية الكريمة . وإليك ما يقوله القرطبىّ فى تفسيره وقد عاش فى عصور القلاقل والفتن فى الأندلس المسلمة وعاصر علامات أفول مجد الإسلام من تلك الدّيار الإسلاميّة العزيزة ولا حول ولا قوة إلاّ بالله العلىّ العظيم . يقول[1] : « قلت : ولعمر الله لقد أعرضنا نحن عن الجميع بالفتن فتظاهر بعضنا على بعض ! ليت بالمسلمين بل بالكافرين حتّى تركنا إخواننا أذلاّء صاغرين يجرى عليهم حكم المشركين فلا حول ولا قوّة إلاّ بالله العلىّ العظيم » . قال تعالى[2] : ﴿ فاعتبروا يا أولى الأبصار ﴾ .

---

(١) تفسير القرطبىّ ص ٤١٦ .

(٢) سورة الحشر ٢ .

الآيــة رقــم (٨٦)

قال تعالى : ﴿ أولئك الّذين اشتروا الحياة الدّنيا بالآخرة فلا يخفّف عنهم العذاب ولا هم يُنْصرون ﴾ .

بعد أن بيّنت الآية الكريمة السّابقة أنّ جزاء من يقتل أخاه فى العقيدة ويخرجه من دياره ويظاهر على إخراجه بالإثم والعدوان ، الخزى فى الحياة الدّنيا والعذاب الشّديد فى الآخرة ، عمّقت هذه الآية الكريمة التّالية تلك المعانى . إنّ الّذين يفعلون ذلك هم الّذين اشتروا الحياة الدّنيا وآثروا العاجلة الفانية . وما هو الثّمن الّذى بذله أولئك من أجل شراء هذه الحياة الدّنيا ؟ أمّا الثّمن فإنّه غالٍ حقّاً ، إنّه الآجلة الخالدة ، والجنّة الّتى عرضها السّماوات والأرض والّتى أعدّها الله سبحانه وتعالى للمتّقين . وحينما يكون ثمّة إيثارٌ للعاجلة فلا يكون ذلك إلاّ على حساب الآجلة . وحينما يكون ثمّة تضحيةٌ بالجنّة فلا يكون بديلاً للجنّة إلاّ النّار وبئس القرار . وهذا المصير هو الذى نبّهت عليه الآية الكريمة السّابقة وعمّقته هذه الآية الكريمة . إنّ عذاب جهنّم الأليم الشّديد المقيم لا يخفّف عنهم ، ولا هم ينصرون ، فليس ثمّة الشّفيع ولا الولىّ الحميم ولا النّاصر . إنّ الشّفاعة غير مقبوله ، والفداء غير نافع ، والنّاصر الّذى يدفع العذاب أو يخففه غير موجود .

وإنّ العودة إلى الله تعالى هى الملجأ الوحيد ، ويكون ذلك عن طريق اتّباع النّبىّ الأمىّ خاتم الأنبياء والمرسلين محمّد به عبد الله ﷺ وتطبيق تعاليم القرآن الكريم وسنّة أشرف الأنبياء والمرسلين . وهكذا يتبيّن أنّ الحديث يتّجه بطريق غير مباشر إلى المسلمين . إنّ من يؤثر الحياة الدّنيا من مالٍ وجاهٍ وملّذات رخيصةٍ ومتاعٍ عاجلٍ زائل ويدفع الآجلة الباقية الخالدة والجنّة الّتى فيها ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر ثمناً للعاجلة الفانية فإنّ مصير أولئك إلى النّار التى لا يخفّف عنهم عذابها ولا يستطيع أن يصرفه صارف أو يدفعه ناصر .

الآيــة رقــم (٨٧)

قال تعالى : ﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب وقفّينا من بعده بالرّسل وآتينا عيسى ابن مريم البيّناتِ وأيّدناه بروح القدس . أفكلّما جاءكم رسولٌ بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقاً كذّبتم وفريقاً تقتلون ﴾ .

الكتاب : التّوراة فى قول الجمهور . والألف واللاّم فيه للعهد إذ قرن بموسى . وانتصابه على أنّه مفعولٌ ثانٍ لآتينا[١] .

قفّينا : أردفنا وأتبعنا بعضهم خلف بعض كما يقفو الرّجل الرّجل إذا سار فى أثره من ورائه . وأصله من القفا يقال منه : قفوت فلاناً إذا صرت خلف قفاه كما يقال دبرته إذا صرت فى دبره[٢] والقفا مؤخرّ العنق تقول : استقفيته إذا جئت من خلفه ، ومنه سمّيت قافية الشّعر لأنّها تتلو سائر الكلام[٣] والأصل أن يجيء الإنسان تابعاً لقفا الّذى اتّبعه ثمّ توسّع فيه حتّى صار لمطلق الاتّباع وإن بعد زمان المتبوع من زمن التّابع[٤] والياء من قفّينا أصلها الواو . إلاّ أنّها متى وقعت رابعةً أبدلت ياءً كما تقول : غزيت من الغزو[٥] .

ومن فى « من بعده » لابتداء الغاية وهو ظاهر ، لأنّه يحكى أنّ موسى لم يمت حتّى نبّىء يوشع[٦] .

ويقال : رسل بتسكين العين ورسل بضمّها لغتان الأولى لغة الحجاز والثّانية لغة تميم[٧] « وإنّما يعنى جلّ ثناؤه بقوله : ﴿ وقفّينا من بعده بالرّسل ﴾ أى أتبعنا بعضهم

---

(١) البحر المحيط ٢٩٨/١ وانظر تفسير القرطبىّ ص ٤١٧ والجلالين والكشّاف ٢٢٥/١ وتفسير ابن كثير ١٢٢/١ وتفسير الطّبرىّ ٣١٩/١

(٢) تفسير الطّبرىّ ٣١٩/١

(٣) تفسير القرطبىّ ص ٤١٧

(٤) البحر المحيط ٢٩٦/١

(٥) البحر المحيط ٢٩٨/١

(٦) البحر المحيط ٢٩٨/١

(٧) تفسير القرطبىّ ص ٤١٧ والبحر المحيط ٢٩٧/١

بعضاً على منهاجٍ واحد وشريعةٍ واحدة ؛ لأنّ كلّ من بعثه الله نبيّاً بعد موسى عليه السلام إلى زمان عيسى ابن مريم فإنّما بعثه يأمر بنى إسرائيل بإقامة التّوراة والعمل بما فيها والدّعاء إلى ما فيها »[١] وقد « ختم أنبياء بنى إسرائيل بعيسى ابن مريم فجاء بمخالفة التّوراة فى بعض الأحكام ولهذا أعطاه الله من البيّنات وهى المعجزات — قال ابن عبّاس : من إحياء الموتى وخلقه من الطّين كهيئة الطّير فينفخ فيها فتكون طيراً بإذن الله ، وإبراء الأسقام ، وإخباره بالغيوب ، وتأييده بروح القدس وهو جبريل عليه السّلام — ما يدلّهم على صدقه فيما جاءهم به ، فاشتد تكذيب بنى إسرائيل له وحسدهم وعنادهم لمخالفة التّوراة فى البعض كما قال تعالى إخباراً عن عيسى : ﴿ ولأحلّ لكم بعض الّذى حرّم عليكم وجئتكم بآيةٍ من ربّكم ﴾ »[٢] .

أيّدناه : قوّيناه[٣] والأيد : القوّة[٤] .

الرّوح : اسمٌ للجزء الّذى به تحصل الحياة والتّحرّك واستجلاب المنافع واستدفاع المضارّ[٥] .

القدس : الطّهارة[٦] .

بروح القدس : قراءة الجمهور بضمّ القاف والدّال . وقرأ مجاهد وابن كثير بسكون الدّال حيث وقع ، وفيه لغة فتحها[٧] وروح القدس جبريل عليه السّلام ، قاله قتادة والسّدّىّ والضّحّاك والرّبيع ونسب هذا القول لابن عبّاس قاله ابن عطية . وهذا أصحّ الأقوال . وقد قال النّبىّ صلى الله عليه وسلم لحسّان بن ثابت : « اهج قريشاً وروح القدس معك » . ومرّةً قال له : « وجبريل معك » . انتهى كلامه . قالوا : ويقوّى ذلك قوله تعالى : ﴿ إذ أيّدتك بروح القدس ﴾ . وقال حسّان :

---

(١) تفسير الطبرى ١/٣١٩ (٢) تفسير ابن كثير ١/١٢٢

(٣) تفسير القرطبىّ ص ٤١٧ وتفسير الطّبرى ١/٣٢٠

(٤) البحر المحيط ١/٢٩٧

(٥) مفردات الرّاغب الأصفهانى ص ٢٠٥

(٦) تفسير القرطبىّ ص ٤١٨ والبحر المحيط ١/٢٩٧

(٧) البحر المحيط ١/٢٩٩ .

وجبريل رسول الله فينا وروح القدس ليس له كفاء[١]

« قال النّحاس : وسمّى جبريل روحاً وأضيف إلى القدس لأنّه كان بتكوين الله عزّ وجلّ له روحاً من غير ولادة والد ولده ، وكذلك سمّى عيسى روحاً لهذا »[٢] وأضيف إلى القدس من حيث إنّه ينزل بالقُدْس من الله أى بما يطهّر به نفوسنا من القرآن والحكمة والفيض الإلٰهى[٣] أى بالرّوح المقدّسة ، كما تقول : حاتم الجود ورجل صدق[٤] فهو من إضافة الموصوف إلى الصّفة[٥] واختصاص عيسى بجبريل من آكد وجوه الاختصاص إذ لم يكن لأحدٍ من الأنبياء مثل ذلك لأنّه هو الّذى بشّر مريم بولادته . وتولّد عيسى بنفخه . وربّاه فى جميع الأحوال . وكان يسير معه حيث سار . وكان معه حيث صعد إلى السّماء[٦] .

« والدّليل على أنّ روح القدس هو جبريل كما نصّ عليه ابن مسعود فى تفسير هذه الآية وتابعه على ذلك ابن عبّاس ومحمّد بن كعب وإسماعيل بن خالد والسدّىّ والرّبيع بن أنس وعطيّة العوفىّ وقتادة مع قوله تعالى : ﴿ نزل به الروح الأمين ، على قلبك لتكون من المنذرين ﴾ ، ما قال البخارىّ : وقال ابن أبى الزّناد عن أبى هريرة عن عائشة أنّ رسول الله ﷺ وضع لحسّان بن ثابت منبراً فى المسجد فكان ينافح عن رسول الله ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ : ﴿ اللّٰهمّ أيّد حسّان بروح القدس كما نافح عن نبيّك » .... وفى الصّحيحين من حديث سفيان بين عيينة عن الزّهرىّ عن سعيد بن المسيّب عن أبى هريرة أنّ عمر بن الخطّاب مرّ بحسّان وهو ينشد الشّعر فى المسجد فلحظ إليه فقال : قد كنت أنشد فيه وفيه من هو خيرٌ منك ثمّ التفت إلى أبى هريرة فقال : أنشدك الله أسمعت رسول الله ﷺ يقول : أجب عنّى ، اللّٰهمّ أيّده بروح القدس ؟ فقال : اللّٰهمّ نعم . وفى بعض الرّوايات أنّ رسول الله ﷺ قال لحسّان : « اهجهم ، أو هاجهم ، وجبريل معك »[٧] .

---

(١) البحر المحيط ١/٢٩٩ وانظر تفسير القرطبىّ ص ٤١٧

(٢) تفسير القرطبى ص ٤١٧

(٣) مفردات الرّاغب الأصفهانى ص ٣٩٦

(٤) الكشّاف ١/٢٢٦

(٥) الجلالين

(٦) البحر المحيط ١/٣٠٠

(٧) تفسير ابن كثير ١/١٢٢

أفكلّما : الهمزة أصلها للاستفهام وهى هنا للتّوبيخ والتّقريع . والفاء لعطف الجملة على ما قبلها . واعتنى بحرف الاستفهام فقدّم والأصل فأكلّما[١] .

رسول : الرّسول فعول بمعنى المفعول أى المرسل وهو قليل ومنه الحلوب والرّكوب بمعنى المحلوب والمركوب[٢] .

بما لا تهوى أنفسكم : بما متعلّق بقوله جاءكم . وما موصولة . والعائد محذوف أى لا تهواه[٣] أى بما لا يوافقها ويلائمها . وحذفت الهاء لطول الاسم[٤] وأصل الهوى الميل إلى الشّىء ، ويجمع أهواء كما جاء فى التنزيل[٥] وأكثر استعمال الهوى فيما ليس بحقّ ومنه هذه الآية . وأسند الهوى إلى النّفس و لم يسند إلى ضمير المخاطب فكان يكون بما لا تهوون إشعاراً بأنّ النّفس يسند إليها غالباً الأفعال السّيئة . إنّ النّفس لأمارةٌ بالسّوء . فطوّعت له نفسه قتل أخيه . قال بل سوّلت لكم أنفسكم[٦] .

استكبرتم : استفعل هنا بمعنى تفعّل وهو أحد معانى استفعل . وفسّر رسول الله ﷺ الكبر بأنّه سفه الحقّ وغمط النّاس . والمعنى قيل : استكبرتم عن أجابته احتقاراً للرّسول أو استبعاداً للرّسالة[٧] .

ففريقاً كذّبتم ، منصوب بكذّبتم ، وكذا : وفريقاً تقتلون . فكان ممّن كذّبوه عيسى ومحمّد عليهما السّلام ، وممّن قتلوه يحيى وزكريّا عليهما السّلام[٨] وقد نقل ابن كثير فحوى ما قاله الزّمخشرىّ فى الكشّاف يقول[٩] : « وقال الزّمخشرىّ فى قوله تعالى : ﴿ فريقاً كذّبتم وفريقاً تقتلون ﴾ : إنّما لم يقل وفريقاً قتلتم لأنّه أراد بذلك وصفهم فى المستقبل أيضاً لأنّهم حاولوا قتل النّبىّ ﷺ بالسّمّ والسّحر ، وقد قال عليه السّلام فى مرض موته : ما زالت أكلة خيبر تعاودنى فهذا أوان انقطاع أبهرى . قلت : وهذا

---

(١) البحر المحيط ١/٣٠٠
(٢) البحر المحيط ١/٢٩٧
(٣) البحر المحيط ١/٣٠٠
(٤) تفسير القرطبىّ ص ٤١٨
(٥) تفسير القرطبىّ ص ٤١٨
(٦) البحر المحيط ١/٣٠٠
(٧) البحر المحيط ١/٣٠٠
(٨) تفسير القرطبىّ ص ٤١٨
(٩) تفسير ابن كثير ١/١٢٣

الحديث فى صحيح البخارىّ وغيره » .

بيّنت الآيات الكريمات السّابقات نقض بنى إسرائيل للعهود والمواثيق ومخالفتهم تعاليم التّوراة حتّى ظهروا فى صورة من يؤمن بالبعض القليل من تعاليم التّوراة ويكفر بالبعض الكثير . وإنّ من أسوأ مظاهر مخالفتهم تعاليم التّوراة تجاوزهم نهيها لهم عن سفك دماء إخوانهم فى العقيدة وإخراجهم من ديارهم إلى قتل هؤلاء الإخوة فى العقيدة وإخراجهم من ديارهم متعاونين مع غير هؤلاء الإخوة فى العقيدة . والآية الكريمة الّتى نحن بصددها تمرّ سريعاً على مخالفاتهم المستمرّة لتعاليم التّوراة الّتى تأمرهم باتّباع رسل الله تعالى إليهم بعد موسى عليه السّلام إلى عيسى ابن مريم عليه السّلام . وعلى غرار تمادى بنى إسرائيل فى المخالفة والعناد كما بيّنت ذلك الآيات الكريمات السّابقات ، تبيّن هذه الآية الكريمة تمادي بنى إسرائيل فى غيّهم وعنادهم ، فها هم أولاء يتجرّأون على رسل الله تعالى ، ليس بالتّكذيب فقط ، بل بالتّكذيب وبالقتل أيضاً . فإذا كان السّياق من ذى قبل قد بيّن أنّهم يقتلون إخوانهم فى العقيدة ، فإنّ الآية الكريمة هنا تبيّن أنّهم تجاوزوا كلّ حدود الله تعالى وتخطّوا منتهاها حينما تجرّأوا على قتل رسل الله تعالى إليهم . ويلاحظ أنّ الآية الكريمة تبيّن أنّهم لم يقتلوا واحداً من رسل الله تعالى إليهم فقط ، إنّما أصبح قتل رسل الله تعالى إليهم دأبهم وديدنهم ﴿ ففريقاً كذّبتم وفريقاً تقتلون ﴾ .

لقد بيّنت الآية الكريمة فى صيغةٍ مؤكّدة بأنّ الله سبحانه وتعالى وقد بعث موسى عليه السّلام رسولاً إلى بنى إسرائيل قد آتاه جلّ وعلا فضلاً منه ونعمة كتاباً سماويّاً هو التّوراة ، وأتبعه تعالى بالرّسل إلى بنى إسرائيل ، تلك الرّسل الّتى أرسلها الله سبحانه وتعالى تترى وأتبع بعضهم بعضاً . وكان كلّ رسل بنى إسرائيل مأمورين باتّباع التّوراة وتطبيق تعاليمها ، وقد جاء فى سورة المائدة[1] قوله تعالى : ﴿ إنّا أنزلنا التّوراة فيها هدًى ونور يحكم بها النّبيّون الّذين أسلموا للّذين هادوا والرّبانيّون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء ، فلا تخشوا النّاس واخشون ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلاً . ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾ . فكان على كل أنبياء بنى

(١) الآية ٤٤

إسرائيل أن يسيروا وفق شرعة التّوراة ومنهجها وأن يدعوا بنى إسرائيل إلى اتّباع تعاليمها . وأوّل من جاء من رسل بنى إسرائيل ببعض الأحكام المخالفة لأحكام التّورة عيسى ابن مريم عليه السّلام الّذى نصّت عليه الآية الكريمة ، وهو آخر رسل بنى إسرائيل : ﴿ وآتينا عيسى ابن مريم البيّنات وأيّدناه بروح القدس ﴾ وقد آتى الله سبحانه وتعالى عيسى عليه السّلام تلك الآيات البيّنات والحجج الواضحات معجزاتٍ له عليه الصّلاة والسّلام ، وتأييداً من الله تعالى له فيما جاء بنى إسرائيل من ربّه بما فى ذلك تلك الأحكام المتعلّقة به عليه الصّلاة والسّلام والّتى تضمّنها الإنجيل ، إحدى آيات الله تعالى البيّنات الّتى آتاها عيسى عليه السّلام . وفى موضعين اثنين فى القرآن الكريم ، فى سورتى آل عمران والمائدة ، كان ثمّة حديثٌ مستفيض عن الآيات الّتى آتاها الله تعالى عيسى عليه السّلام . جاء فى سورة آل عمران[1] قوله تعالى . ﴿ إذ قالت الملائكة يا مريم إنّ الله يبشرك بكلمةٍ منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيهاً فى الدّنيا والآخرة ومن المقرّبين . ويكلّم النّاس فى المهد وكهلاً ومن الصّالحين . قالت ربّ أنّى يكون لى ولدٌ ولم يمسسنى بشر ، قال كذلك الله يخلق ما يشاء ، إذا قضى أمراً فإنّما يقول له كن فيكون . ويعلّمه الكتاب والحكمة والتّوراة والإنجيل . ورسولاً إلى بنى إسرائيل أنّى قد جئتكم بآية من ربّكم أنّى أخلق لكم من الطّين كهيئة الطّير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله وأبرىء الأكمه والأبرص وأحى الموتى بإذن الله وأنبّئكم بما تأكلون وما تدّخرون فى بيوتكم ، إنّ فى ذلك لآيةً لكم إن كنتم مؤمنين . ومصدّقاً لما بين يدىّ من التوراة ولأحلّ لكم بعض الّذى حرّم عليكم ، وجئتكم بآيةٍ من ربّكم فاتّقوا الله وأطيعون . إنّ الله ربّى وربّكم فاعبدوه هذا صراطٌ مستقيم ﴾ ونستطيع أن نفهم من القول : ﴿ ولأحلّ لكم بعض الّذى حُرّم عليكم ﴾ نوعاً من الأحكام الّتى خالف الإنجيل فيها التّوراة . وجاء فى سورة المائدة[2] قوله تعالى : ﴿ إذ قال الله يا عيسى ابنّ مريم اذكر نعمتى عليك وعلى والدتك إذ أيّدتك بروح القدس تكلّم النّاس فى المهد وكهلاً وإذ علّمتك الكتاب والحكمة والتّوراة

---

(١) الآيات ٤٥ ــ ٥١

(٢) الآية ١١٠

والإنجيل ، وإذ تخلق من الطّين كهيئة الطّير بأذنى فتنفخ فيها فتكون طيراً بإذنى ، وتبرىء الأكمه والأبرص بإذنى ، وإذ تُخْرج الموتى بإذنى ، وإذ كففت بنى إسرائيل عنك إذ جئتهم بالبيّنات فقال الّذين كفروا منهم إن هذ إلاّ سحرٌ مبين ﴾ .

ونحن نتبين من جملة آتى ، بمعنى أعطى ، فى الموضعين نوعاً من فضل الله تعالى على هذين الرّسولين الكريمين حيث إنّه يرتبط بالإيتاء نوعٌ من السّوق للمُعْطَى وتيسير سبل وصوله إلى المُعْطَى له ، جاء فى اللّسان[1] : « وآتى إليه الشّىء : ساقه .... والإيتاء : الإعطاء . آتى يؤاتى إيتاءً وآتاه إيتاءً أى أعطاه » كما نتبيّن أنّ الآية الكريمة تنصّ على كون عيسى عليه السّلام هو ابن مريم : ﴿ وآتينا عيسى ابن مريم البيّنات ﴾ وإذا كان عيسى عليه السّلام قد جاء اسمه فى القرآن الكريم خمساً وعشرين مرّة ، فقد جاء النّصّ على كونه ابن مريم ستّ عشرة مرّة ، ومنها هذه الآية الكريمة . وبالنّظر إلى المرّات التّسع الّتى جاء فيها ذكر عيسى مجرّداً يتبيّن أنّ اسمه عليه السّلام جاء مع غيره من المصطفين الأخيار ، بينما جاء اسمه عليه السّلام فى سورة الزّخرف بعد الإشارة إليه فى القول[2] : ﴿ ولمّا ضرب ابن مريم مثلاً إذا قومك منه يَصِدّون ﴾ فإذا تحوّلنا إلى المواطن الثّلاثة الأخيرة الّتى جاء فيها لفظ عيسى وحده تبيّنّا أنّها جميعاً فى سورة آل عمران وفى آياتٍ ثلاثٍ متقاربة حقاً ، فالآيات الكريمات هى الثّانية والخمسون ، والخامسة والخمسون ، والتّاسعة والخمسون . وإنّ المناسبة فى المواضع الثلاثة واحدة ، ثمّ إنّ الاكتفاء باسم عيسى فى هذه المواضع الثّلاثة لأنّها وطّئها فى أولى آيات هذا الموضوع بالنّصّ على كون عيسى عليه السّلام ابن مريم وذلك فى الآية الكريمة الخامسة والأربعين فى قوله تعالى : ﴿ إذ قالت الملائكة يا مريم إنّ الله يبشّرك بكلمةٍ منه اسمه المسيح عيسى ابنُ مريم وجيهاً فى الدّنيا والآخرةِ ومن المقرّبين ﴾ .

ونستطيع أن نفهم أنّ عناية الآيات الكريمات بالنّصّ على كون عيسى عليه السّلام هو ابن مريم يراد به من ناحية الرّدّ على أولئك الغالين من أتباعه عليه الصّلاة والسّلام فهو

---

(٢) « أتى » .

(٢) سورة الزّخرف ٥٧

ليس سوى عبد الله ورسوله . ويراد به من ناحيةٍ أخرى الرّدّ على اليهود الّذين قالوا عن مريم الّتى اصطفاها الله تعالى وطهّرها واصطفاها على نساء العالمين ، يراد به الرّدّ على اليهود الّذين قالوا عنها قولاً عظيماً ، على نحو ما أشارت سورة النّساء[1] فى قوله تعالى : ﴿ وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيما ﴾ .

وبالإضافة إلى إيتاء الله سبحانه وتعالى عيسى عليه السّلام العديد من الآيات البيّنات بقصد أن يؤمن به ويصدّقه بنو إسرائيل الّذين ابتعدوا عن الصّراط المستقيم كثيراً ، فقد أيّده الله سبحانه وتعالى وقوّاه بروح القدس جبريل عليه السّلام . ومع أنّ لكلّ رسل الله تعالى اتّصالاً بجبريل عليه السّلام ، فهو الّذى ينزل بالقدس من الله تعالى أى بما يطهّر النّفوس من الوحى والفيض الإلـٰهيّين ، فإنّ اختصاص عيسى بجبريل من آكد وجوه الاختصاص ، إذ لم يكن لأحدٍ من الأنبياء مثل ذلك لأنّه هو الّذى بشّر مريم بولادته ، وتولّد عيسى بنفخه ، وربّاه فى جميع الأحوال ، وكان يسير معه حيث سار ، وكان معه حيث صعد إلى السّماء[2] .

وتنكر الآية الكريمة فى استفهامها التّوبيخىّ التّقريعىّ على بنى إسرائيل استكبارهم وطغيانهم وعتوّهم كلّما جاءهم رسولٌ من عند الله تعالى بما لا تهوى أنفسهم . ومعروفٌ أنّ بنى إسرائيل أخذوا يبتعدون تباعاً عن تعاليم التّوراة حتّى انحرفوا بشريعة موسى عليه السّلام الصّافية النّقيّة إلى يهوديّةٍ مادّيّةٍ بشعة . ولمّا كان الابتعاد عن الطّريق المستقيم مستمرّاً ، فمعنى هذا أنّ الحاجة إلى إرسال رسل الله تعالى إليهم مستمرّة ، وليس ذلك الابتعاد عن الطّريق المستقيم والانحراف عن المنهج القويم إلاّ وليد اتّباع القوم أهواء أنفسهم الأمّارة بالسّوء والّتى تسلّط عليها الشّيطان الرّجيم . وقد تمكّنت تلك الأهواء من القوم حتّى إنّهم لا يرون شيئاً إلاّ خلالها ولا يسمعون شيئا إلاّ عن طريقها ولا يقبلون من الأشياء إلاّ ما وافق تلك النّفوس الأمارة بالسّوء . ومن هنا كانت مهمّة رسل الله تعالى إلى بنى إسرائيل رغم كثرة الرّسل وتتابعهم مهمّةً شاقّة كما هى دائماً . ولكنّها فى

---

(١) الآية ١٥٦ (٢) البحر المحيط ١/٣٠٠

فى حقّ بنى إسرائيل كانت هى الشّاقة حقّاً إذ إنّ بنى إسرائيل لم يكتفوا بتكذيب الرّسل إنّما جمعوا فى حقّ بعض الرّسل بين تكذيبهم وقتلهم .

وحينما نتمثّل اصطفاء الله تعالى بعض عباده بأكبر نعمه ، بالنّبوة أو الرّسالة ، وحينما نتمثّل الإحسان الّذى لا يمكن وصفه والإحاطة ببعضه ، ذلك الإحسان الّذى قدّمه أولئك الأنبياء والمرسلون إلى البشريّة ، وهم الّذين لا يسألون النّاس أجراً مقابل تقديمهم للبشريّة أغلى ما يصحّ أن تملك ألا وهو توحيد الله تعالى وإفراده بالعبادة وحده لا شريك له ، وحينما نتبيّن أنّ بنى إسرائيل قد تجرّأوا على بعض رسل الله تعالى فكذّبوهم ، وتمادوا فى الجرأة على بعضهم الآخر فقتلوهم ، ولا ذنب لهم إلاّ أنّهم يقولون : ربّنا الله ، ندرك مدى الشّقاء البعيد الّذى ليس وراءه وراء وقد ارتضاه بنو إسرائيل واختاروه وآثروه .

ويجىء فى السّياق جملة « جاء » وقد عرفنا أنّها لا تستعمل فى القرآن الكريم إلاّ دليلاً على القرب . والمعنى هنا أنّ رسل الله تعالى قد وصلوا فعلاً إلى بنى إسرائيل وخالطوهم وبلّغوهم وجهاً لوجه ما أرسلهم الله تعالى به . وبما أنّ القوم منساقون دائماً وراء أهوائهم بينما يريد رسل الله تعالى منهم أن يلقوا أهواءهم وراءهم ظِهْرِيًّا وأن يقبلوا على الله تعالى ويأتمروا بأمره وينتهوا بنهيه ، فذلك معناه الصّراع الأبدىّ بين القوم المنساقين وراء أهوائهم وبين رسل الله تعالى إليهم . ولا يكتفى بنو إسرائيل بالتّكذيب إذا تمكّنوا من قتل الرّسل وليس الدّافع لما يرتكبه بنو إسرائيل من تكذيبٍ وقتل سوى الكبر الّذى أدىّ بهم إلى احتقار الرّسل والتّعالى عليهم وإلى استبعاد الرّسالة وجحدها .

وفى هذا القول : ﴿ ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون ﴾ يجىء الزّمن الماضى بشأن التّكذيب بينما يجىء الزّمن المضارع بشأن القتل ، ووراء المراعاة للفاصلة فى القول « تقتلون » نحن نتبيّن مجموعةً من الأمور الخادمة للمعنى . فلو أنّا نظرنا إلى ترتيب الحدثين التّكذيب والقتل ، لتبيّنّا أنّ التّكذيب هو السّابق ، فلا يكون القتل مثلاً إلاّ بعد تكذيب ، فكأنّ فى توزيع الزّمنين على الحدثين تنبيهاً إلى ترتيب زمن حدوثهما . ثمّ إنّ السّياق فى هذا القسم من السّورة يوجّه إلى كلٍّ من الآباء والذّرارى لأنّ اللاّحقين يَقْفون